

البير كامو

أطورة ميريف

نقله الى العربية
أنيس زكي حسن



أُطُورَة سِرِيف

البير كامو

أُطُورَة سِرِّيف

مَنَقَلَهُ إِلَى الْقَرْيَةِ
أَمِير رَجِي حَسَن

مَنَقَلَات دَار مَكْتَبَةِ الْحَيَاةِ
بِيْرُوت - لَبْنَان

حقوق الطبع محفوظة

١٩٨٣

إلى : باسكال يا — كامو

آه يا روحي ، لا تطمحني الى الحياة الخالدة ،
ولكن استنفدي حدود الممكن .

بندار - ٣ : اناشيد أبوللو

الصفحات التالية تعالج حساسية لا مجدية يراها المرء سائدة في العصر -
وليس فلسفة لا مجدية لم يعرفها زمننا بعد ، إذا اردنا الدقة . ولهذا
فن العدل ان نشير ، منذ البداية ، إلى ما تدين به هذه الصفحات
لبعض المفكرين المعاصرين . بل انني لا اقصد الى اخفاء ذلك مطلقاً ،
وانما سيراه القارئ مذكوراً ، بالاسماء ، ومعلقاً عليه في هذا الكتاب .

بيد انه من المفيد ان نشير في الوقت نفسه الى أن الالاجدوى ، التي
سأتناولها باعتبارها نقطة انطلاق . وبهذا المعنى يمكن القول بأن هنالك
شيئاً من المؤقتية في تعليقاتي : ولا يستطيع المرء ان يتنبأ بالموقف الذي
تقود اليه . سيجد القارئ هنا وصفاً فقط ، بالمعنى الخالص ، لمرض
فكري . وليس هنالك شيء من الميتافيزيك او الاعتقاد بأمر ما في
الوقت الحاضر . وهذه هي الحدود ، والالتزامات الوحيدة في الكتاب .
والحق ان بعض التجارب الشخصية هي التي تجعلني أوضح هذا .

المقدمة

اسطورة سيزيف ، بالنسبة لي ، كانت بداية فكرة رحلت اتلبعها في كتاب - الثائر - . انها تهدف الى حل مشكلة الانتحار ، كما يحاول - الثائر - ان يحل مشكلة القتل ، وفي الحالتين ، بدون مساعدة القيم الدائمة التي هي ، ربما مؤقتاً ، غير موجودة او مشوهة في اوروبا اليوم . ان الموضوع الاسامي في - اسطورة سيزيف - هو هذا : من المشروع والضروي التساؤل عما إذا كان للحياة معنى ، وهكذا فمن المشروع ان نواجه مشكلة الانتحار وجهاً لوجه . والجواب ، الذي يكن في ، ويلوح عبر المتناقضات التي تغطيه ، هو هذا : حتى إذا لم يؤمن المرء بالله ، فان الانتحار غير مشروع . ان هذا الكتاب ، الذي ألفته قبل خمس عشرة سنة ، في عام ١٩٤٠ ، خلال الكوارث الفرنسية والاوروبية يبين انه ، حتى ضمن حدود العدمية ، من السهل ايجاد الوسيلة للضي إلى ما وراء العدمية ، وقد حاولت في كل الكتب التي الفتها منذ ذلك الحين أن اتلبع هذا الاتجاه . وبالرغم من ان - اسطورة سيزيف - لتتناول المشاكل الفانية ، فان هذا الكتاب يلخص نفسه لي باعتباره دعوة سهلة الى العيش والخلق ، حتى وسط الصحراء .

ولهذا فقد كان من المظنون ان في الوسع تلبع هذا الرأي الفلسفي

بسلسلة من المقالات من النوع الذي لم أكف عن كتابته ، تلك المقالات التي هي في بعض الأحيان تكرار لما جاء في كتيبي الاخرى . انها كلها ، توضح ، بشكل اكثر غنائية ، ذلك التردد الاسامي بين القبول والرفض الذي هو ، في رأيي ، يعرف الفنان ومهنته الصعبة . ان وحدة هذا الكتاب ، وارجو ان يكون ذلك واضحاً للقراء كما هو واضح لي ، تكمن في التأمل ، البارد حيناً ، الملتهب حيناً آخر ، الذي قد يفرق فيه الفنان لبحث اسبابه في العيش والخلق . وبعد خمس عشرة سنة ، أجد نفسي قد مضيت قدماً من المواقف التي سجلتها هنا ، ولكنني ما أزال مخلصاً ، كما يلوح لي ، للدوافع التي جعلتني اتخذ تلك المواقف . وهذا هو السبب في ان هذا الكتاب ، هو بمعنى معين ، أشد الكتب التي نشرتها ذاتية . وهذا ايضاً يجعل من الضروري ان يبه القراء تسامحهم وتفهمهم .

البير كامو

باريس ، آذار ١٩٥٥



الفتايل بالله محبي

اللاجئ والانتحار

هنالك مشكلة فلسفية هامة وحيدة ، هي الانتحار . فالحكم بأن الحياة تستحق ان تعاش ، يسمو الى منزلة الجواب على السؤال الاساسي في الفلسفة . وكل المسائل الباقية — هل ان للعالم ثلاثة أبعاد أم لا ، هل ان للذهن تسعة أصناف ام اثني عشر صنفاً — تأتي بعد ذلك . فهذه هي لعب ، وعلى المرء أن يحب أولاً . واذا كان صحيحاً ، كما يدعي نيتشه ، ان الفيلسوف ، لكي يستحق احترامنا ، يجب عليه ان يعلم بواسطة الأمثال ، فانت تستطيع ان تقدر اهمية ذلك الجواب ، لانه يسبق عملية التعريف . تلك هي حقائق يمكن للقلب ان يحس بها ومع ذلك فانها تتطلب البحث الروي قبل ان تصبح واضحة للذهن .

انني لأسأل نفسي ، كيف استطيع ان احكم بأن هذه المسألة هي

أهم من تلك ، واجيب بأن المرء يحكم بواسطة الفعاليات التي تستلزمها المسألة . ولم أرَ أحداً مات من أجل التفكير في الكينونة . فغاليلو ، الذي عرف حقيقة علمية ذات أهمية عظيمة ، تخلى عنها بكل سهولة في اللحظة التي هددت فيها حياته . وبمعنى من المعاني نجد انه حسنا فعل ^(١) فلم تكن تلك الحقيقة تستحق المشقة ، فكون الأرض تدور حول الشمس او الشمس تدور حول الأرض هو من الأمور التي تتصف بأعق الاكثر . وانها لمسألة لا جدوى فيها أن يقول المرء الحقيقة . ومن الناحية الأخرى ، فاني أجده الكثيرين يموتون لانهم يقررون ان الحياة لا تستحق ان تعاش . وأجد آخرين يذهبون ضحية القتل ، بصورة متناقضة ، لانهم يفعلون ذلك بسبب الأفكار أو الاوهام التي تهيبهم سبباً يعيشون من اجله . (فها هو سبب ممتاز للعيش ، هو أيضاً سبب ممتاز للموت) . ولهذا فاني استنتج ان معنى الحياة هو أشد المسائل إلحاحاً فكيف نجيب عن تلك المسألة ؟ هنالك طريقتان في التفكير بكل المسائل الجوهرية (وأعني بذلك تلك المسائل التي يكمن فيها خطر الموت او المسائل التي تركز الرغبة في الحياة) : طريقة لاباليس وطريقة دون كيشوت . فالتوازن بين الدليل وبين الغنائية هو وحده الذي يتيح لنا ان نحقق ، في وقت واحد ، العاطفة والوضوح . وفي الموضوع الذي هو في وقت واحد معا ، متواضع ، ومثقل بالعاطفة ، يستطيع المرء ان يقول ان الديالكتيك الذي يتمثل في المعرفة وفي الكلاسيكية يجب ان يفسح مجالا لموقف أكثر تواضعاً ، موقف فكري

(١) من وجهة النظر القائلة بالقيمة النسبية للحقيقة . ومن الناحية الأخرى ، من وجهة النظر القائلة بساوك القوة والرجولة ، نجد ان موقف غاليلو يعطينا فسماً ، لضعفه .

مستمد في وقت واحد من الادراك العام والتفهم .

لم يتم بحث الانتحار الا باعتباره ظاهرة اجتماعية . ولكننا هنا ،
بمكس ذلك ، معنيون منذ البداية بالعلاقة بين التفكير الفردي وبين
الانتحار . فمثل هذا العمل يجري اعداده ضمن صمت القلب ، كالمعمل
الفني العظيم . بل ان الانسان نفسه يحمله . وفي احدى الأمسيات ،
يضغط على الزناد ، أو يقفز . وقد علمت عن مشرف على بناء العمارات
كان قد انتحر ، لأنه فقد ابنته قبل خمس سنوات ، وانه كان قد تغير
كثيراً منذ ذلك الحين ، وان تلك التجربة كانت قد « هدمته » . ولا
يمكننا ان نتصور كلمة ادق من هذه . فالبدء بالتفكير هو البدء بالتهديم
وليس للمجتمع الا صلات قليلة بتلك البدايات . الدودة هي في قلب
الانسان ، وعلينا ان نفكش عنها هناك . وعلى المرء ان يتبع ويتفهم تلك
اللغة الغائبة التي تقود من الوضوح في وجه الوجود الى الفرار من الضياء .

هنالك أسباب كثيرة للانتحار ، وبصورة عامة نجد ان اوضح هذه
الاسباب ليس أقواها . فنادرأ ما يتم ارتكاب الانتحار بعد تأمل (ومع
ذلك فلا يمكننا ان نستبعد هذه الفرضية .) وليس في الوسع ، غالباً
التحقق مما يبعد الكارثة . الصحف كثيراً ما تتحدث عن - التعازي
الشخصية - أو عن - المرض الذي لا يرجى شفاؤه - . وهذه تفسيرات
مقبولة . ولكن على المرء ان يعرف ما اذا لم يكن صديق ذلك الشخص
اليائس قد خاطبه في ذلك النهار نفسه بلا اكتراث هو المذنب . لان
ذلك يكفي للتعجيل بكل الاحقاد ، والسأم ، التي ما تزال معلقة .^(١)

(١) دعنا لا نضيع هذه الفرصة لنشير الى الصفة النسبية لهذا البحث ، فالانتحار يمكن ان
يعزى لاسباب مشرقة اشد كانتحار الاحتجاج السياسي ، كما كانوا يسمونه ، اثناء الثورة الصينية .

بيد انه اذا صعب تعيين اللحظة المضبوطة ، الخطوة الدقيقة حين يكون الذهن قد اختار الموت ، فمن السهل استنتاج النتائج التي يشتمل عليها الفعل ، من الفعل نفسه . فبمعنى من المعاني ، وكما هو الامر في روايات الرعب ، يرقى قَتْلُكَ لنفسك الى منزلة الاعتراف . انه الاعتراف بان الحياة كثيرة عليك ، او بانك لا تفهمها . دعنا لا نذهب بعيداً في سرد هذه الاستنتاجات ، ولنعد الى كلمات الحياة اليومية . ان ذلك هو مجرد اعتراف بان - ذلك لا يستحق العناء - . فالعيش ، بالطبع ، ليس سهلاً . فانت تستمر على إداء الحركة التي يأمر بها الوجود لاسباب عديدة ، اولها العادة . والموت طوعاً يتضمن انك قد ادركت ، حتى غريزياً ، صفة تلك العادة المضحكة ، وعدم وجود اي سبب عميق للعيش ، الصفة اللاعاقلة لذلك الدأب اليومي ، ولا جدوى العذاب .

فما هو ، اذن ، ذلك الشعور الذي لا يوصف ، والذي يحرم الذهن من النوم الضروري للعيش ؟ ان العالم الذي يمكن تفسيره حتى ولو بالاسباب الرديئة هو عالم مألوف . ولكن ، من الناحية الأخرى ، نجد ان الانسان يحس بالغربة في كون يتجرد فجأة من الاوهام والضوضاء ، ونفيه هذا هو بلا علاج ما دام قد حرم من ذكريات وطن مضيع ، او من أمل ارض موعودة . وهذا الطلاق بين الانسان وحياته ، الممثل ومشهده ، هو بالضبط الشعور بالاجدوى . ولما كان كل الناس الاصحاء قد فكروا في انتحارهم ، فيمكننا ان نرى ، بدون ايضاح آخر ، ان هنالك صلة مباشرة بين هذا الشعور بالاجدوى وبين الحنين الى الموت .

وموضوع هذا الكتاب هو بالضبط هذه العلاقة بين اللاحدوى والانتحار والدرجة الدقيقة التي يكون بها الانتحار حلاً لللاحدوى . ويمكن الاخذ بالمبدأ القائل بأن الانسان الذي لا يخاف ولا يخدع ، يعتمد على ما يظنه صحيحاً في تقرير فعاليته . ولهذا فان الاعتقاد بلا جدوى الوجود يجب ان يقرر موقفه . ومن المشروع التساؤل ، بوضوح وبدون أي شجن زائف ، عما اذا كان استنتاج هذه الاهمية يتطلب التخلي بالسرعة الممكنة عن الظرف الذي يمكن ادراكه . انني أتحذّر ، بالطبع ، عن الناس الذين يميلون إلى الاتفاق مع أنفسهم .

فاذا اوضحنا هذه المشكلة ، فانها قد تلوح بسيطة ، وغير قابلة للحل . ولكن قد افترض خطأ ان الاسئلة البسيطة تعني اجوبة لا تقل عنها بساطة ، وان الدليل يشتمل على الدليل . فنفترس ، وبمعكس وجه المسألة ، تماماً كما ينتحر المرء او لا ينتحر ، يلوح ان هنالك حلين فلسفيين فقط ، فاما نعم ، او لا . وهذا سيكون امراً سهلاً جداً . ولكننا يجب ان نفسح مجالاً لأولئك الذين ، بدون ان يستنتجوا ، يستمرون على التساؤل . وهنا أجد نفسي ألبأ إلى الاشارة الساخرة قليلاً : هؤلاء هم الاغلبية . وانني لألاحظ ايضاً ان اولئك الذين يكون جوابهم - لا - يتصرفون وكأنهم يقولون - نعم - . والحق انني ، اذا قبلت مقياس نيتشه ، أستطيع أن أقول انهم يفكرون - نعم - بهذه الطريقة او بتلك . ومن الناحية الاخرى ، فغالباً ما يحدث ان اولئك الذين ارتكبوا الانتحار كانوا واثقين من معنى الحياة . وهذه المتناقضات ثابتة . ومن الممكن ايضاً القول بانهم لم يهتموا قط كاهتمامهم بهذه النقطة التي يكون المنطق فيها ، بالمعكس ، مرغوباً . انه لمن الاشياء العادية

ان نقارن النظریات الفلسفیه بتصرفات اولئك الذین یبشرون بتلك النظریات . ولکننا یحب ان نذكر اننا لا نجد بین المفکرین الذین لم یروا فی الحیة ای معنی مفکراً واحداً ، عدا کیریلوف ^(١) فی عالم الادب وبریفرینوس المولود من الاسطورة ^(٢) ، وجول لیکوییه فی عالم الافتراض ، أقر منطقہ الی حد رفض تلك الحیة . وکثیراً ما یدکر اسم شوبنهاور لاقارة السخریة ، لأنه امتدح الانتحار بینما کان یجلس الی مائدة بدیعة . ولكن هذا لیس من المواضيع التی تحتل السخریة . وان هذه الطریقة فی عدم بذل الاهتمام فی بحث المأساة قد لا یحزن الی هذا الحد ، ولكننا نقرر حکماً علی انسان .

تري هل ان علینا ، بمواجهة مثل هذه المتناقضات والغموض ، ان نستنتج انه لیس هنالك علاقة بین الرأي الذی تحمله المرء عن الحیة والفعل الذی یرتکبه المرء لمغادرتها ؟ دعنا لا نبالغ فی هذا المجال . فهنالک فی تعلق الانسان بالحیة شیء أقوى من کل شرور العالم . وحکم الجسم هو بقوة حکم العقل ، والجسم ینکمش من الإبادة . ونحن نتعود علی العیش قبل ان نحصل علی عادة التفكير . وفي هذا السباق الذی یقربنا یومياً من الموت تكون للجسد اسبقیتہ الی لا یمکن ان ینالها الاصلاح . وباختصار ، فان جوهر ذلك التناقض یمکن فیما سأسمیه فعل

(١) کیریلوف — بطل دوستوفسکی الذی یرید ان ینتحر فیدفع نفسه تحت تصرف جماعة ثوریة تستغل فی اعمال الاغتيال — المترجم .

(٢) لقد سمعت بوجود مقلد لیریفرینوس ، وهو من کتاب ما بعد الحرب ، انتحر حالاً انهی کتابه الاول ، لکمی یحتذب الانتباه الی کتابه . وقد ظفر بذلك حقاً . ولكن الکتاب اعتبر سیئاً .

التضليل ، لانه ، في نفس الوقت ، اقل واكثر من التحول بالمعنى الباسكالي والتضليل هو اللعبة التي لا تتغير . وفعل التضليل النموذجي ، التخلص القتال الذي يؤلف الفكرة الثالثة في هذا الكتاب ، هو الامل ، الامل في حياة اخرى ، يجب ان تكون من - استحقاق - المرء ، او خدعة اولئك الذين يعيشون ، لا للحياة نفسها ، وإنما لفكرة ما ، عظيمة ، ستفوق الحياة ، تنقيها ، تعطيها معنى ، وتفضحها .

وهكذا يؤدي كل شيء الى نشر الارتباك . فعلى الآن ، ولم يكن ذلك بالجهد الضائع تلاعب الناس بالكلمات وتظاهروا بان انكار المعنى على الحياة يؤدي بالضرورة الى اعلان انها لا تستحق ان تعاش . والحق انه ليس هنالك مقياس ضروري عام بين هذين الرأيين . وعلى المرء فقط أن يرفض الانخداع بالارتباكات ، والانفصالات ، والامور غير المنسجمة التي أشرت اليها . على المرء ان ينحي كل شيء جانبا ويتجه مباشرة الى المشكلة الحقيقية . ان المرء ينتحر لأن الحياة لا تستحق ان تعاش ، وتلك هي حقيقة اكيدة - ولكنها غير مثمرة لأنها حقيقة عادية . ولكن هل تصدر اهانة الوجود تلك - ذلك الانكار التام الذي تفرق فيه الحياة - من انها بلا معنى ؟ وهل ان لا جدوى الوجود تتطلب من المرء ان يفر منه عبر الامل او الانتحار - هذا هو ما يجب توضيحه وتبعه وتبسيطه في الوقت الذي يتم فيه استبعاد الامور الاخرى ، بصورة خارجة عن كل طرق التفكير وبمارسات الذهن الحر . وليس هناك مكان في هذا البحث وهذا الانفصال لظلال المعنى والمتناقضات وسايكولوجية الذهن الموضوعي التي يستطيع ادخالها على كل المشاكل . ان هذه المشكلة ، ببساطة ، تستدعي التفكير اللاعادل - بعبارة أخرى ،

التفكير المنطقي . وهذا ليس سهلاً . من السهل دائماً ان يكون المرء منطقياً ، ولكن من الصعب تقريباً ان يكون المرء منطقياً حتى النهاية المرة . ان اولئك الذين يموتون بأيديهم يتبعون ، بالنتيجة ، ميولهم العاطفية الى نهاياتها . والتأمل في الانتحار يعطيني الفرصة لاثارة المشكلة الوحيدة التي تهمني : هل هنالك منطق عند مرحلة الموت ؟ لست استطيع ان اعرف ما لم أتبع ، بدون أية انفعالات حقاء وعلى ضوء الدليل فقط ، التعليل الذي اقترح مصادره هنا . هذا هو ما اسميه التعليل اللامجدي . ولقد بدأ مثل هذا التعليل الكثيرون . ولست أعرف الآن ما إذا كانوا قد التزموا به أم لا .

حين يستغرب كارل ياسبرز ، موحياً باستحالة تشكيل العالم كوحدة ، قائلاً : ان هذه الحدود تقودني الى نفسي ، حيث لا استطيع بعد أن أنسحب وراء وجهة نظر موضوعية امثلها وحسب ، وحيث لا أستطيع انا نفسي ، ولا وجود الآخرين ، ان يصبح موضوعاً بالنسبة لي ، فانه يثير ، بعد ان فعل ذلك الكثيرون مسألة تلك الصحاري الخالية من الماء ، حيث يصل الفكر الى حدوده . فعل ذلك الكثيرون حقاً ، ولكن الى اية درجة كانوا متلفين الى الخروج من تلك الحدود : ففي مفترق الطرق ذاك ، حيث يتردد الفكر ، كان قد وصل الكثيرون ، الكثيرون حتى من العاديين . وحينئذٍ تخلوا عن أعز الاشياء بالنسبة اليهم ، حياتهم . وتخلّى آخرون ، من أمراء الفكر ، عن مثل ذلك ، ولكنهم بدأوا انتحار أفكارهم في أشد ثوراتها نقاء . المجهود الحقيقي هو في البقاء هنالك ، بقدر ما يكون ذلك ممكناً ، وتفحص الحياة الراكدة في تلك المناطق البعيدة . ان الاصرار وحدة الإدراك يستطيعان ان

يرقبا هذا العرض البشري الذي تتحدث فيه اللاجدوى والامل والموت .
ويستطيع الذهن عندئذ ان يحلل أشكال تلك الرقصات البدائية ، مع
براعتها ، قبل ان يوضحها ويعيشها بنفسه .

الاسوار الالاجدية :

المشاعر العميقة ، كالأعمال العظيمة ، تعني دائماً أكثر ما تدرك قوله .
والانتظام في دافع او نفور نفس يحابه ثانية في عادات الفعالية أو
التفكير ، وبعاد توليده في نتائج لا تعرف النفس شيئاً عنها . والمشاعر
العظيمة تأخذ معها كونها ، رائحة أو طعم . انها تضيء باحتدامها عالماً
استثنائياً تستطيع فيه ان تدرك جوها . وهنالك كون من الغيرة ،
والطموح والافانية أو الكرم . كون - بعبارة اخرى ، ميتافيزيكيا ،
وموقف ذهني . وما ينطبق على المشاعر التي خصصناها الآن ينطبق
أكثر على الانفعالات التي هي اساساً في مثل الالاجودية ، وفي الوقت
نفسه في غموض وفي - وضوح - ، وفي بعد و - حضور - تلك التي
تثيرها اللاجدوى او يثيرها الجمال . وفي اية زاوية من زوايا الشارع
يمكن للاجدوى ان تصفع اي انسان على وجهه . وهي ، في عريها
المقلق ، وفي ضوئها بدون بريق ، مضلة . ولكن تلك الصعوبة نفسها
تستحق التأمل . ولعله من الصحيح ان الانسان يظل غير معروف أبداً
بالنسبة لنا ، وان فيه شيئاً يغيب عن ادراكنا ، شيئاً لا يمكن تقليصه
لفهمه . ولكنني عملياً اعرف الناس واميزهم بسلوكهم ، بمجموع افعالهم ،
بالنتائج التي يتركها وجودهم في الحياة . وكذلك هي كل تلك المشاعر
اللاعاقلة التي لا تقسح مجالاً للتحليل . انني استطيع ان اعرفها عملياً ،

بان اجمع معاً مجموع نتائجها في مجال الادراك ، بان اقبض عليها ، والاحظ كل مظاهرها ، وبان أضع خطوط كونها . لا شك في انه من الواضح انني بالرغم من رؤيتي للمثل نفسه مائة مرة ، لا استطيع ان اعرفه شخصياً بصورة افضل لذلك السبب . الا انني اذا جمعت الابطال الذين مثلهم ، وإذا قلت انني اعرفه افضل عند الشخصية المائة ، فان ذلك سيدخل الشعور باعتباره محتوياً على حقيقة ، على شيء من الحقيقة . لان هذا التعارض الواضح هو ايضاً امثلة . انه يعط بشيء ، وهذا الشيء هو ان الانسان يعرف نفسه بانخداعه ، تماماً كما يفعل ذلك ايضاً بخوافزه المخلصة . هناك اذن مفتاح أوطأ للمشاعر ، لا يمكن الوصول اليه في القلب ، ولكنه يتضح جزئياً عبر الافعال التي تمنحها المشاعر والمواقف الذهنية التي تأخذها . ويتضح انني بهذه الطريقة اقوم بتعريف طريقة . ولكن من الواضح ايضاً ان تلك الطريقة هي من التحليل وليست من المعرفة . لان الطرق تتضمن الميتافيزيكيات ، وهي تكشف بصورة غير مدركة استنتاجات غالباً ما تدعي بانها لم تعرفها بعد . وهكذا فان الصفحات الأخيرة من كتاب ما ، موجودة مقدماً في الصفحات الاولى . ومثل هذه الصلة حتمية . والطريقة المعرفة هنا تدن للشعور القائل بان المعرفة الحقيقية مستحيلة . وإنما يمكن تعداد المظاهر ، فيدخل الجو في الشعور .

ربما سيكون في وسعنا ان نقبض على ذلك الشعور المضلل باللاجدوى في العوالم المختلفة ، والمتصلة اتصالاً وثيقاً ، والخاصة بالادراك ، بفن العيش ، او بالفن نفسه . وجو اللاجدوى هو في البداية . والنهاية هي الكون الالاجدي وذلك الموقف الذهني الذي ينير العالم بالوانه الحقيقية

لاظهار المظهر المتميز الثابت الذي عرفه ذلك الموقف في تلك النهاية .

ان لكل الافعال العظيمة والافكار العظيمة بدايات مضحكة . وغالباً ما تولد الأعمال العظيمة في زاوية الشارع او في الابواب الدوارة في مطعم وكذلك هو الأمر مع الالاجدوى . والعالم الالاجدي يأخذ نبلة ، اكثراً من العوالم الاخرى ، من ذلك المولد الالاجدي . وفي ظروف معينة ، قد يكون الجواب - بلا شيء - حين يسأل الإنسان عما يفكر فيه ، ادعاء . واولئك الذين يتمتعون بالحلب يعرفون ذلك جيداً . ولكن إذا كان الجواب صادقاً ، اذا كان يرمز الى تلك الوضعية الغريبة في النفس حين يصبح الحواء بليغاً ، حين تتحطم سلسلة الحركات اليومية ، حين يفتش القلب عبثاً عن الرابطة التي تربطه ثانية ، فان ذلك يشبه العلامة الاولى من علامات الالاجدوى .

فيحدث ان مشاهد المسرح تهدم . النهوض ، الباص ، أربع ساعات في الدائرة أو المصنع ، وجبة الطعام ، الباص ، أربع ساعات من العمل ، وجبة الطعام ، النوم ، والاثنين ، الثلاثاء ، الأربعاء ، الخميس ، الجمعة ، السبت ، طبقاً للنسق نفسه - من الممكن السير في هذه الطريق بسهولة دائماً . ولكن في يوم من الأيام تنشأ - لماذا - ويبدأ كل شيء من ذلك الضجر بالأصطباغ بالدهشة . ويبدأ ، هذا هو المهم . فالضجر يأتي في نهاية أفعال الحياة الميكانيكية ، ولكنه في الوقت نفسه يفتح حافز الادراك ويثير ما يتبع ذلك . وما يتبع ذلك هو العودة التدريجية الى السلطة أو ان يكون ذلك اليقظة المعرفة . ويأتي بعد اليقظة ، في الوقت المناسب ، ينتج من ذلك : الانتحار ، أو الشفاء .

والضجر يحتوي في نفسه على شيء يبعث على الغثيان . وهنا يجب علي ان اقرر ان ذلك امر طيب . لان كل شيء يبدأ عبر الادراك ، ولا شيء يستحق اي اهتمام الا عبر الادراك . وليس هنالك شيء من الاصلة في ملاحظاتي هذه ، ولكنها واضحة ، وهذا يكفي الان ، إنها كشف تخطيطي لاصول الالجدوى . فان مجرد - القلق - موجود في قلب كل شيء .

وهكذا ، وخلال كل يوم من أيام الحياة العادية ، يحملنا الزمن . ولكن تأتي لحظة يكون علينا نحن ان نحمل الزمن فيها . اننا نعيش على المستقبل : - غداً - ، - بعد ذلك - ، - حين تكون قد بدأت - ، - ستفهم حين تكبر - . ومثل هذه الأمور رائعة ، لأننا على كل حال ، نجد ان المسألة هي مسألة موت . ولكن يأتي يوم يلاحظ فيه الانسان أو يقول أنه في الثلاثين . وهكذا فهو يبين كونه شاباً ، ولكنه في الوقت نفسه يبين نفسه بعلاقتها بالزمن . انه يأخذ مكانه فيه . وهو يقر بانه يقف في نقطة معينة في قوس يعترف بان عليه ان يستمر فيه الى نهايته . انه يخص الزمن ، وبالرعب الذي يقبض عليه ، يدرك اسوأ اعدائه ، غداً ، انه يحن الى الغد ، بينما كان عليه ان يرفضه . وثورة الجسد هذه هي الالجدوى .^(١)

خطوة أخرى ، ثم تزحف الغرابة : في رؤية ان العالم - كثيف -

(١) ولكن ليس بالمعنى الدقيق ، فليس هذا تعريفاً ، وانما هو تعداد للمشاعر التي تفسح مجالاً للالجدوى . ومع ذلك فعين تنتهي من هذا الاحصاء ، نجد ان الالجدوى لم تنته .

وفي تقدير درجة غربة وبعد حجر ما عنا ، والتركيز التي تنفينا به الطبيعة أو المتظر . وفي قلب كل جمال ، يكمن شيء لا بشري ، وهذه التلال ، ونعومة السماء ، وخط تلك الاشجار في هذه اللحظة بالذات تفقد كلها المعنى المضلل الذي كنا نلبسها اياه ، وتصبح أشد بعداً عنا من الفردوس المفقود . ويواجهنا عداء العالم عبر آلاف السنين ، ونكف لحظة عن فهم ذلك لاننا لم نعرف فيه عبر القرون غير الصور والاشكال التي كنا نعزوها اليه من قبل ، ولأننا منذ ذلك الحين فقدنا القوة على الافادة من تلك الوسيلة . وهكذا يضلنا العالم لانه يصبح هو نفسه ثانية . وتصبح تلك المشاهد المسرحية المقنعة بقناع العادة مرة اخرى هي نفسها ، ويعتمد ذلك عنا تماماً كما يحدث ان تأتي ايام نرى فيها خلف الوجه المألوف للمرأة التي احببناها شهوراً أو أعواماً طويلة شيئاً غريباً ، ثم قد نشتهي فجأة ما يتركنا وحيدين هكذا . ولكن الوقت لم يحن بعد . وهناك شيء واحد فقط : تلك الكثافة والغرابة في العالم هي اللاجدوى .

والبشر ايضاً يحتفظون في انفسهم بالالبشرية . ففي لحظات معينة من الوضوح والمظهر الميكانيكي لحركاتهم ، تجعل تلك الحركات الخرساء السخيفة التي لا معنى لها كل شيء يحيط بهم يتصف بتلك السخافة . رجل يتحدث في التلفون وراء حاجز زجاجي . انت لا تستطيع ان تسمعه ، ولكنك ترى منظره الصامت غير المفهوم : وتتساءل : لماذا هو حي ؟ فهذا وهذا - الغثيان - كما يسميه احد الكتاب اليوم ^(١) ، هو أيضاً اللاجدوى . وكذلك فان الغريب الذي يأتي احياناً لمواجهةنا في المرأة ،

(١) يقصد جان بول سارتر - المترجم .

الشعيق المألوف ، ومع ذلك ، المفزع ، الذي نراه في صورتنا الفوتوغرافية هو أيضاً اللاجدوى .

آتي أخيراً على الموت ، والموقف الذي نقفه منه . وقد قيل كل شيء بهذا الصدد ، ومن المناسب فقط ان نتجنب الشجن . ومع ذلك فلن يندهش المرء جداً من ان الجميع يعيشون وكان احداً منهم لم يعرف - شيئاً عن الموت . وهذا هو لانه ليس هنالك في الواقع تجربة للموت . واذا اردنا الدقة فلا شيء هنالك قد تمت تجربته ، واتما هنالك ما عشناه وجعلناه مدركا . وهنا لا يمكن التحدث عن تجربة موت الآخرين . انه بديل ووم وهو لا يقنضنا مطلقاً . ذلك الاعتقاد الكئيب لا يمكن ان يكون مقنعاً . والرعب يصدر في الحقيقة من المظهر الحسابي للحادثة . واذا أربعنا الزمن فذلك لانه يصنع المشكلة ، ويأتي الحل بعد ذلك . وسيتم اثبات ما هو عكس كل الخطب الجميلة عن الروح ، بصورة مقنعة ، على الأقل لفترة . لقد اختفت الروح من هذا الجسد الراكد الذي لا تترك فيه الصفحة أثراً . وهذا المظهر البدائي التعريفي للمغامرة يؤلف الشعور اللاجدي . وفي ضوء ذلك المصير القاتل تتضح لا جدوى ذلك الشعور . وليس هنالك عرف خلقي أو مجهود يمكن تبريره نظرياً أمام الحسابات القاسية التي تقرر ظروفنا .

دعني اكرر : لقد قيل كل هذا . وأنا هنا أحصر بحثي بإجراء تصنيف سريع وبالإشارة الى هذه الأفكار الواضحة . انها تملأ كل الآداب والفلسفات ، ويستمد الحديث اليومي أفكاره منها ، ولا حاجة هنالك لاعادة اختراعها . ولكن من الضروري التأكد من هذه الحقائق لكي

يكون في وسعنا ان نوجه الأسئلة لانفسنا بعد ذلك بشأن المسألة الموجودة منذ البداية . انني لست مهتماً - دعني اكرر مرة اخرى - بالاكشافات الالاجدية كاهتمامي بنتائجها . فاذا تأكد المرء من هذه الحقائق ، فمادى يستنتج ؟ والى أي مدى سيستطيع التخلص من الاشياء ؟ وهل يموت المرء طوعاً ، أو يأمل ، بالرغم من كل شيء ؟ قبل كل شيء ، من الضروري ان نضع تلك القائمة السريعة ذاتها على مستوى الادراك .

* * *

ان خطوة الذهن الاولى هي تمييز الصحيح من الزائف . وعلى كل حال ، فحالما يتأمل الفكر في نفسه فانه يكتشف التناقض أولاً . ولا جدوى في محاولة الاقناع في هذه المسألة . فلم يعط احد عبر القرون تعبيراً اوضح وابدع للمسألة من تعبير أرسطو : - ان النتيجة المسخفة دائماً ، التي تنتج من هذه الآراء ، هي انها تدمر نفسها بنفسها . لان بيان ان كل شيء هو حقيقي هو بيان حقيقية البيان المعاكس ، وبالتالي زيف افتراضنا نحن (لأن البيان المعاكس لا يقر بأنه يمكن ان يكون صحيحاً) . واذا قال احد ان كل شيء هو زائف فان ذلك البيان نفسه زائف . اذا أعلننا ان البيان المعاكس لبياننا هو الوحيد الزائف او ان بياننا نحن هو الوحيد غير الزائف ، فانا مع ذلك مضطرون الى الاقرار بعدد لا نهاية له من الاحكام الحقيقية او الزائفة . لان من يعبر عن بيان حقيقي يعلن في الوقت نفسه انه صحيح ، وهكذا الى ما لا نهاية ...

ان هذه الحلقة الشريرة ليست الا الاولى في سلسلة يجد الذهن الذي

يدرس نفسه انه يضيع فيها وسط دوامة مدوخة . فبساطة هذه التناقضات تجعلها غير قابلة للتقليص . ومهما يكن اللعب بالكلمات ، وبهلوانيات المنطق ، فان فهم هذا ، هو قبل كل شيء آخر ، توحيدة . واعمق رغبات الذهن ، حتى في أبسط عملياته ، توازي شعور الانسان ، ذلك الشعور غير المدرك ، امام كونه : انها الاصرار على المألوف ، والشهوة الى الوضوح . وفهم العالم هو بالنسبة للانسان تقليصه الى البشري ، وختمه بختمه . وكون القطعة هو ليس كون النمل . وليس هنالك معنى للحقيقة القائلة بأن - الفكر كله متحول حسب الاجناس - . وكذلك فان الذهن الذي يهدف الى فهم الواقع يستطيع ان يعتبر نفسه قائماً فقط بتقليصه الى مصطلحات الفكر . واذا ادرك الانسان ان الكون مثله يستطيع ان يحب ويتعذب فانه سيرضى . واذا اكتشف الفكر في التماعات مرآة الظواهر الباهتة علاقات ابدية قادرة على تلخيص تلك الظواهر وتلخيص ذاتها في مبدأ واحد ، فسنجد غبطة عقلية لن تكون الى جانبها اسطورة المباركين الا تقليداً مضحكاً . فذلك الحنين الى الوحدة وتلك الشهوة الى المطلق يوضحان الحافز الاسامي في الدراما البشرية . ولكن حقيقة وجود ذلك الحنين لا تعني انه سيتم ارضاؤه في الحال . لأننا اذا بينا مع بارمينيدس حقيقة الواحد (بها كان هذا الواحد) ، مالمثل الثغرة التي تفصل بين الرغبة والفلبية ، فاننا سنقع في التناقض المضحك ، تناقض عقل يبين الوحدة التامة ويثبت ببيانته نفسه اختلافاً فيه هو ، وكذلك التنوع الذي ادعى حله . هذه الحلقة الشريرة الأخرى تكفي لخلق آمالنا .

هذه هي حقائق عادية ايضاً . وسأكرر مرة اخرى انها لا تهم بمجد

ذاتها ، وانما بالنتائج التي يمكن استنتاجها منها . وانا اعرف حقيقة عادية اخرى ، وهي تخبرني بأن الإنسان فان . ولكن المرء يستطيع مع ذلك ان يحصي العقول التي خرجت بالاستنتاجات المتطرفة منها . ومن الضروري اعتبار الحلقة المفقودة دائماً بين ما نتصور اننا نعرفه وبين ما نعرفه بالفعل ، بين القبول العملي والجهل المدعى به والذي يسمح لنا بان نعيش مع الافكار التي ، اذا وضعناها موضع الاختبار حقاً فانها يجب ان تقلق حياتنا كلها ، من الضروري اعتبار تلك الحلقة المفقودة المسألة الدائمة التي يشير اليها هذا البحث . فبمواجهة هذا التناقض الذهني الذي يمكن حله سندرك بصورة كاملة تلك العزلة التي تفصلنا عما نخلفه . وما دام الذهن صامتاً في عالم آماله الراكد ، فان كل شيء يجري تأمله وتنظيمه في وحدة حنينه . ولكن بحركته الاولى ، يتهاوى هذا العالم ويتهدم : ويظهر أمام الفهم عدد لا نهاية له من الشظايا البراقة . يجب علينا اليأس من امكانية اعادة بناء السطح المألوف الهاديء الذي يمكن ان يهبنا راحة القلب . فبعد كل هذه القرون من التساؤل ، وكل هذه الامثلة على ما قام به المفكرون من تنازل عن الحياة ، ندرك جيداً ان هذا يتطبق على كل معرفتنا . فباستثناء المعللين المحترفين ، صار الناس اليوم ييأسون من المعرفة الحقيقية . ولو كان السجل الوحيد ذو المغزى ، للفكر ، البشري ، سيكتب ، فانه يجب ان يكون تاريخ اسفه المتعاقب ولا قدرته .

عَمَّن ، وعماداً يا ترى ، أستطيع ان اقول حقاً : — أعرفه ! —
انني استطيع ان اشعر بهذا القلب بيني ، واستطيع أن احكم بأنه موجود.
استطيع ان المس هذا العالم واحكم كذلك بأنه موجود . وهنا تنتهي كل

المعرفة ، وما يتبقى هو تركيب . لانني اذا حاولت ان اقبض على هذه النفس التي اشعر بأنني متأكد منها ، واذا حاولت ان اعرفها والخصها ، فانها ليست غير الماء الذي ينساب من بين اصابعي . استطيع ان اخص كل المظاهر التي تستطيع ان تأخذها واحداً واحداً ، وكل المظاهر التي تعزى اليها ، هذه النشأة ، وذلك الاصل ، تلك الحماسة وذلك الصمت ، ذلك النبل وتلك الحقارة . ولكننا لا نستطيع ان نجمع المظاهر . وذلك القلب الذي هو قلبي ، سيظل أبداً غير معروف بالنسبة لي . وبين اليقين الذي أراه في وجودي والمحتوى الذي اريد ان أعطيه لليقين ، ثغرة لن تملأ قط . وسأظل أبداً غريباً عن نفسي . وهنالك في علم النفس ، كما في المنطق ، حقائق ، ولكن ليست هنالك حقيقة . اما قول سقراط - اعرف نفسك - فهو في مثل قيمة قول اولئك الذين نعترف لهم اليوم : - كن فاضلاً - . انها يتكشfan عن الحنين ، كما يتكشfan عن الجهل . انها يملآن معالجتين عقيمتين للسائل العظيمة . وهما اصيلا فقط بالدرجة التي هما بها تقريريان .

وهنا أشجار ، وأنا أعرف سطوحها المتشابكة ، وعطور المشب ، والنجوم في الليل ، في امسيات معينة حين يستريح القلب - كيف استطيع ان أنفي هذا العالم الذي اشعر بطاقته وقوته ؟ ومع ذلك فان كل المعرفة المتوفرة في الارض لن تعطيني شيئاً يؤكد لي ان هذا العالم هو ملكي انا . انت تصفه لي ، ، وتعلمني كيف اصنعه . وانت تحصي قوانينه ، وأنا ، في الظمأ الى المعرفة ، أقر بانها حقيقة . وانت تتناول كيفية سيره على حدة ، فيزداد أمني . وفي المرحلة الأخيرة تعلمني ان هذا الكون المجيب المملوء بمختلف الالوان يمكن ان يقلص الى

ذرة ، وان الذرة نفسها يمكن ان تقلص الى الكترون ، وكل هذا حسن وأنا في انتظار ان تستمر . ولكنك تخبرني عن نظام كوني غير مرئي تنجذب فيه الالكترونات الى نواة . وانت تفسر لي هذا العالم بالصورة ، وأدرك حينئذ انك تقلصت الى حد الشعر : وانني لن اعرف . وهل يتاح لي الوقت لكي استاء ؟ لقد غيرت انت النظريات ، بحيث ان العلم الذي كان سيعلمني كل شيء انتهى الى فرضية ، وبحيث ان الوضوح صار يتعثر في التشبيه ، وبحيث ان عدم اليقين تم الاجابة عنه في عمل فني . فما حاجتي الى كل هذه الجهود ؟ ان الخطوط الناعمة لهذه التلال ويد المساء على هذا القلب القلقل . يعلماني اكثر . لقد عدت الى بدايتي . انني ادرك انني اذا كنت سأقبض على انظواهر واحصيا بواسطة العلم ، فاني لا استطيع ، مع كل ذلك ، ان افهم العالم . ولو كنت سألمس كيانه كله بأصبعي فاني لن اعرف اكثر . وانت تخبرني بين وصف هو اكيد ولكنه لا يعلمني شيئاً ، وبين فرضيات تدعي بانها تعلمني ، ولكنها ليست أكيدة . غريب عن نفسي وغريب عن العالم ، مسلح فقط بفكر ينفي نفسه في اللحظة التي ينطق فيها ببيان ما ، ترى ما هي هذه الوضعية التي استطيع ان اجد فيها السلام فقط يرفض ان اعرف ويرفض ان اعيش ؟ والتي تنفذ فيها شهوة الغلبة عبر اسوار تتحدى هجماتنا ؟ أن اريد هو ان اثير المتناقضات . وكل شيء هو منظم بحيث انه يأتي بذلك السلام المسموم الذي هو وليد اللاتفكير واللامبالاة ، وإغفاء القلب ، والاعتزال القاتل .

وهكذا فان الادراك أيضاً يخبرني بطريقته بان هذا العالم لا مجرد . أما عكس الادراك ، اي العقل الاعمى ، فقد يدعي ان كل شيء واضح لقد كنت انتظر البرهان واتمنى ان يكون صحيحاً . ولكن بالرغم من

هذا العدد من القرون الدعية ، وفوق رؤوس هذا العدد من المقنعين والبلقاء ، فاني اعرف انه زائف . وعلى هذا المستوى ، على الاقل ، ليست هنالك سعادة اذا لم يكن في وسمي أن أعرف . أن ذلك السبب العام ، عملياً كان ام اخلاقياً ، وتلك النظرة التقريرية ، تلك الاصناف التي تفسر كل شيء ، كافية كلها لتجعل المرء المعقول يضحك . تلك امور لا علاقة لها بالعقل ، انها تنفي حقيقته العميقة التي يراد الظفر بها . وفي هذا الكون اللامفهوم ، المحدود ، يتخذ مصير الانسان منذ الآن فصاعداً معناه . لقد احاطت به عصابة من الامور اللامعقولة ، حتى خاتمتها النهائية . وفي وضوحه المستعاد ، المبحوث الان ، يصبح الشهور باللاجدوى واضحاً محدداً . قلت ان العالم لا مجد ، ولكنني كنت قد تسرعت . كل ما يمكن قوله هو ان هذا العالم غير معقول . ولكن اللاجدوى تكن في مواجهة هذا اللامعقول ، والتلف الوحشي على الوضوح الذي يتردد صدى ندائه في القلب البشري . واللاجدوى تعتمد على الانسان كاعتمادها على العالم ، وفي الوقت الحاضر ، فان اللاجدوى هي الرابطة الوحيدة بينها . انها تربطها معاً كما يربط الحقد بين مخلوقين . وهذا هو كل ما استطيع ان اراه بوضوح في هذا الكون الذي لا قياس له والذي تحدث فيه مغامرتي . دعنا نتوقف هنا . اذا اعتقدت بصحة اللاجدوى التي تقرر علاقتي بالحياة ، واذا تشبعت تماماً بتلك العاطفة التي تقبض علي أمام مشاهد العالم ، مع ذلك الوضوح المفروض علي بتبضع علم ما ، فعلي ان اضحي بكل شيء من اجل هذه الامور الاكيدة ، وعلي ان اراها مباشرة لكي يكون في وسمي ان احتفظ بها . وفوق كل شيء ، علي ان اعد سلوكي ليناسبها ، والاحقها في كل نتائجها . انني احدث هنا عن الامور المناسبة . ولكنني اريد ان اعرف قبل ذلك

هل يستطيع الفكر ان يعيش في تلك الصحارى .

* * *

انا اعرف الان ان الفكر قد دخل الى هذه الصحارى بالفعل ،
وهناك وجد خبزه . وهناك ادرك انه كان قبل ذلك يعيش على
الاشباح ، وبرر ذلك بعض أشد الأفكار الحاحاً على التأمل البشري .

منذ اللحظة التي يتم فيها ادراك اللاجذوى ، تصبح انفعالات ، أشد
الانفعالات ازعاجاً . ولكن سواء كان المرء يستطيع ان يعيش مع
انفعالاته ام لا ، سواء كان يستطيع ان يتقبل قانونها ام لا ، ذلك
القانون الذي يحرق القلب الذي تسمو به تلك الانفعالات ، الجواب على
ذلك هو الجواب على السؤال كله . ولكن هذا السؤال هو ليس السؤال
الذي سنسأله الان . انه يمكن في مركز هذه التجربة . وسيتوفر لنا
الوقت لنعود اليه . دعنا نميز تلك الافكار والخوافز التي تولد في الصحراء .
يكفي ان نعددها . وهي ، ايضاً ، معروفة للجميع اليوم . كان
هناك دائماً قوم يدافعون عن حقوق اللامعقول ، ولم يختف من الوجود
تقليد ما يسمى الفكر المذلل . وقد قيل الكثير في نقد المعقولة بحيث
انه لا داعي هنا لتكرار كل ذلك . ومع هذا فان فترتنا تتميز بتكرار
ظهور تلك الأنظمة المتعارضة التي تحاول ان تتسقط هفوات العقل وكأنه
كان هو الذي شق الطريق دائماً . ولكن هذا لا يثبت قدرة العقل على
الوصول الى النتائج بقدر ما يثبت تركيز مطامحه . وعلى مستوى التاريخ ،
يوضح لنا ثبات الموقفين هذا الانفعال الاسامي للانسان الذي يتناهبه
حافزه الى الوحدة ورؤياه الواضحة التي قد يملكها ، للاسوار التي تحيط به .

ولكن مهاجمة العقل لم تكن يوماً ما بالقسوة التي هي عليها الآن في عصرنا . فننذ صرخة زرادشت العظيمة ! « هو بالسدفة أقدم نبل في العالم » ، وقد منحه للشيء كلها حين أعلنت انه لن تسيطر عليها ارادة أبدية » ، ومنذ مرض كير كفارد القتال - ذلك المرض الذي يؤدي الى الموت دون ان يقبعه شيء آخر - ، راحت معاني افكار اللاحدوى المعذبة يلعب احدها الآخر . أو على الأقل ، وهذا امر من الامور المهمة ، افكار الفكر اللامعقول والديني . فمن يأسبرز الى هايديفر ، ومن كير كفارد الى جيستوف ، ومن الباحثين عن الظواهر الى شيلر ، على المستوى المنطقي وعلى المستوى الاخلاقي ، استمرت عائلة كاملة من الازدهان ، تجمعها الكتابة والحنين ، وتفرق بينها طرقها أو أهدافها ، في سد طريق العقل المتحكم ، وفي استعادة ممرات الحقيقة المباشرة . وافترض هنا ان هذه الأفكار معروفة ومعاشة . ومهما كان أو يكون طموح هؤلاء ، فقد بدأوا جميعاً من ذلك الكون الذي لا يوصف والذي يتحكم فيه التناقض والنسخ والمذاب أو الضعف . أما ما يجمعهم معاً فيتجلى في الأفكار التي كشفنا عنها حتى الآن . وقد كانوا هم أيضاً مهتمين بالنتائج التي يمكن استنتاجها من هذه الاكتشافات . وهذا مهم الى درجة اننا يجب ان نبجسهم بحثاً منفصلاً . ولكننا مهتمون الآن باكتشافاتهم وتجاربهم الاولى فقط نحن معنيون فقط بملاحظة اتفاقهم . فاذا كان من باب الفرض ان نعالج فلسفاتهم ، فانه لممكن وكاف على اية حال ان نبين الجو الذي يحيط بهم معاً .

يبحث هايديفر الوضعية البشرية ببردود ويعلن ان ذلك الوجود مذلل . والحقيقة الوحيدة هي - القلق - في سلسلة الكائنات كلها .

وبالنسبة للانسان الضائع في هذا العالم وتنوعاته يكون هذا القلق خوفاً قصيراً عابراً . الا انه اذا ادرك ذلك الخوف نفسه ، فانه يصبح عذاباً ، الجو الدائم لدى الانسان الواضح - الذي يتركز فيه الوجود - ان استاذ الفلسفة هذا يكتب بدون ان يرتعد ، وبأشد اللغة تجريدية في العالم ، قائلاً - ان صفة الوجود البشري ، الحاضرة المحدودة ، تسبق الانسان نفسه - . ويمتد اهتمامه (بكائظ) فقط الى تمييز صفة - العقل الخالص - المقيدة . وهذا يعني انه يستنتج في نهاية تحليله - ان العالم لا يستطيع بعد ان يقدم شيئاً للانسان الذي يملأه العذاب - . ويلوح له هذا العذاب أشد أهمية جداً من كل الاصناف في العالم ، التي يفكر ويتحدث بها فقط . انه يعدد مظاهره : السأم حين يحاول الانسان العادي ان يكتم العذاب ويشله في نفسه ، والرعب حين يتأمل الذهن في الموت . وهو ايضاً لا يفصل الادراك عن التفاهة . فادراك الموت هو نداء القلق - ثم يوجه الوجود نفسه نداءه عبر وساطة الادراك - . انه لصوت العذاب ، وهو يرجو الوجود - ان يعود من ضياعه في - م - المجهولة - . ويرى هايدنغر ايضاً ان المرء يجب ألا ينام ، وانما يجب عليه ان يظل ساهراً حتى يحين التنفيذ . انه يقف في هذا العالم اللامجدي ويشير الى طبيعته العابرة . وهو يفتش عن الطريق وسط هذه الخرائب .

اما ياسبرز فهو ييأس من كل علم للكينونة ، لأنه يدعي اننا قد فقدنا - البساطة - وهو يعرف اننا لا نستطيع ان نحقق شيئاً يمكن ان يتفوق على اللعبة القاتلة - لعبة المظاهر - . وهو يعرف ان نهاية الذهن هي الفشل . وهو يعمن النظر في المغامرات الروحية التي يتحدث عنها التاريخ ويكشف بلا رحمة نقيصة كل منها ، نقيصة كل نظام ، الوهم

الذي انقذ كل شيء ، التبشير الذي لم يفعل شيئاً . وفي عالمه المضيع
هدراً والذي تبين فيه استحالة المعرفة ، والذي تلوح فيه اللاشئئية الأبدية
الواقع الوحيد ، ويلوح فيه اليأس الذي لا علاج له الموقف الوحيد ، في
هذا العالم يحاول ان يستعيد خيط آريان الذي يؤدي الى الأسرار
القدسية .

أما جستوف فهو يبين دون كلل في مؤلفاته الرقيقة رثابة رائعة ان
احكم الأنظمة وأشد المعقولة عمومية تتهاوى دائماً امام لا معقولة الفكر
البشري ، وهو لا يغفل حقيقة من الحقائق المتعارضة الساخرة في ذاتها ،
او المتناقضات المضحكة التي تحط من قيمة العقل . انه يهتم بشيء واحد
فقط ، وهذا هو الشاذ ، سواء في دنيا القلب او دنيا الذهن . وخلال
التجارب الدوستويفسكية عن الانسان المحكوم ، والمغامرات المؤلمة التي
يقوم بها الذهن النيتشي ، واللعنات الهاملتية ، او ارستقراطية ابن
المريرة ، نجده يتعقب ويسلط الأضواء ويضخم الثورة البشرية ضد ما لا
يمكن تغييره . انه ينكر على العقل أسبابه ، ويبدأ بالتقدم ببعض
التصميم فقط وسط تلك الصحراء التي لا لون لها ، حيث يصبح اليقين
احجاراً .

ولعل أشد الجميع اهتماماً هو كيركغارد ، ففي جانب من وجوده
على الأقل نجد انه قد فعل أكثر من مجرد اكتشاف اللاجذوى . فمن
يكتب - ان أشد الصمت عناداً هو ليس امساك اللسان ، وإنما الكلام -
يؤكد منذ البداية انه ليست هنالك حقيقة مطلقة أو قادرة على التعبير
بصورة مرضية عن وجود هو بذاته مستحيل . ان دون جوان الفهم هذا
يضاعف التسميات المستعارة بالمتناقضات ويؤلف - أحاديث التهذيب - ،

و - مذكرات مفسد - . وهو يرفض التعزيات والأخلاق والمبادئ الموثوق بها . أما بالنسبة للشوكة التي يحس بها في قلبه فانه يهتم بان لا يهدأ ألمها . بالعكس ، انه يوقظ الألم بالغبطة التي يشعر بها رجل يعاني من الصليب ، ولكنه يفتبط به ، ويبني حجراً - بالوضوح ، والرفض ، والوهم - نوع الانسان الذي يسيطر على أفكاره شيء ما . ذلك الوجه الرقيق والساخر ، وذلك الدوران ، الذي تتبعه صرخة من القلب ، هما الروح الناقبة نفسها اذ تصارع واقعاً هو وراء فهمها . والمغامرة الروحية التي تقود كير كغارد الى فضائحه المحبوبة تبدأ بغموض تجربة محولة عن بدايتها ومنحدرة الى لائماسكها الأصلي .

وعلى مستوى مختلف تماماً ، مستوى الطريقة ، نجد هوسيرل وأصحاب مبدأ الظواهر ، يرون تعويض العالم في تنوعه ، بواسطة افراطهم ولا تعقلهم ، وينكرون ان للعقل قوة تفوق طبيعته . ويصبح العالم الروحي بواسطتهم أغنى ، الى حد لا يوصف . فورقة الوردة والحجر الذي يشير الى الاميال في الطريق ، واليد البشرية ، كلها هي في أهمية الحب والرغبة أو قوانين الجاذبية . وكيف التفكير عن التوحيد وعن جعل التشابه الظاهر مألوفاً بشكل مبدأ رئيسي . ويتعلم التفكير من جديد أن يرى ، وأن يكون منتبهاً ، وأن يركز الادراك ، وهو يحول كل فكرة وصورة ، بطريقة بروس ، الى لحظة ذات مزايا . ان ما يبرر الفكر هو ادراكه المتطرف ، وبالرغم من ان هوسيرل هو أشد إيجابياً من كيركغارد وجيستوف إلا ان طريقته في السير ، منذ البداية ، تتنكر مع ذلك لطريقة العقل الكلاسيكية ، وتخيب الأمل ، وتكشف للبديهية والقلب توالداً للظواهر ، ويتصف بمجموع ذلك بصفة لا بشرية . وهذه الطرق

تؤدي الى كل العلوم ، أو أنها لا تؤدي الى أي علم ، ويشبه هذا قولنا انه في هذه الحالة تكون الوسيلة أهم من النتيجة . وكل ما يتضمنه ذلك هو - موقف للفهم - وليس تعزية . دعني أكرر : في البداية ، على الأقل .

كيف يستطيع المرء ألا يشعر بالعلاقة الأساسية بين هذه الأذهان ؟ كيف لا يستطيع المرء أن لا يرى أنهم يقفون حول اللحظة المتميزة المرة التي لا يجد الأمل لنفسه مكاناً فيها ؟ انني أريد أن يتم شرح كل شيء لي ، وإلا فاني لا أريد شيئاً . والعقل يكون مهماً حين يسمع هذا النداء من القلب . والذهن الذي يحوكه هذا الاصرار لا يبحث عن شيء ولا يجد شيئاً غير المتناقضات والسخف . والذي لا أفهمه هو السخف . والذين يسكنون في العالم هم أمثال هؤلاء اللامعقولين . والعالم نفسه ، الذي لا أفهم معناه الوحيد ، ليس غير لامعقولة هائلة . وإذا استطاع المرء أن يقول مرة واحدة فقط : - هذا واضح - ، فسيتم انقاذ كل شيء . ولكن هؤلاء الرجال ينافس بعضهم بعضاً في بيان انه ليس هنالك شيء واضح ، وان كل شيء هو فوضى ، وان كل ما لدى الانسان هو وضوحه ومعرفته الاكيدة للأسوار المحيط به .

وكل هذه التجارب تتفق مع بعضها البعض الآخر ، وتؤكد بعضها بعضاً . فالذهن حين يبلغ حدوده يجب ان يصدر حكماً ويختار نتائج . وهذا هو مكان الانتحار والجواب . ولكنني اريد ان اعكس الامر في هذه المسألة وأبدأ من المغامرة المدركة ثم آتي بعد ذلك الى الافعال اليومية . والتجارب المستعادة في الذهن هنا قد ولدت في الصحراء التي يجب علينا الا نتركها وراءنا . فعلى الأقل ، من الضروري أن

نعرف الى أي مدى ذهبت تلك التجارب . وفي هذه النقطة من جهود الانسان ، نراه يقف وجهاً لوجه مع اللامعقول . وهو يحس في نفس لففته على السعادة والعقل . وتولد اللاجدوى من هذا التقابل بين الحاجة البشرية وصمت العالم اللامعقول . وهذا هو من الأمور التي يجب ألا تنسى . ويجب التمسك بهذا لان كل نتيجة الحياة يمكن ان تعتمد عليه . فاللامعقول ، والحنين البشري ، واللاجدوى التي يلدها لقاؤهما ، هذه هي الصفات الثلاث في الدراما التي يجب بالضرورة ان تنتهي بكل ما في الوجود من منطق .

الانتحار الفلسفي

ان الشعور باللاجدوى ، مع ذلك ، هو ليس فكرة اللاجدوى ، انه يضم اسسها ، وهذا هو كل ما في الامر . والشعور ليس مقتصرأ على تلك الفكرة ، ما عدا في اللحظة القصيرة التي يصدر فيها حكماً على الكون . ولهذا فان للشعور باللاجدوى فرصة الذهاب الى ما هو ابعد انه حي ، بعبارة اخرى ، يجب ان يموت او يتكرر . كذلك هو الامر مع الأفكار التي جمعناها معاً . ولكن هنا أيضاً أجد ان ما يحني لا يتمثل في اعمال افضل الاذهان ، تلك الاعمال التي يؤدي نقدها الى مكان آخر وشكل آخر ، وانما في اكتشاف ما يربط بين استنتاجات تلك الاذهان . ونجد انه لم تختلف الاذهان يوماً كما تختلف هنا . ومع ذلك فاننا نرى كميّة بارزة ، الامتداد الروحي الذي تشير فيه تلك الاذهان . وكذلك ، فبالرغم من مناطق المعرفة المتائلة هذه ، فان النداء الذي ينتهي به الامر يكون متشابهاً . ومن الواضح ان للمفكرين

الذين بحثناهم الآن جواً عاماً . فاذا قلنا ان ذلك الجو قتال ، فان قولنا هذا لا يقترب من اللعب بالكلمات الا قليلاً جداً . فالعيش تحت السموات الخائفة يضطر المرء على الهروب او البقاء . والمهم هو ان نرى كيف يهرب الناس في الحالة الاولى ، ولماذا يبقى الناس ، في الحالة الثانية . وهذا هو تعريفي لمشكلة الانتحار والاهتمام الممكن بنتائج الفلسفة الوجودية .

ولكنني اود اولاً ان اميل عن الطريق المباشرة . فقد استطعنا حتى الآن ان نحصر اللاجذوى عن الخارج . ويستطيع المرء ، على كل حال ، ان يتساءل عن مدى الوضوح في تلك الفكرة وان يحاول بالتحليل المباشر ان يكتشف معناها من ناحية ، والنتائج التي تشتمل عليها من الناحية الاخرى .

اذا اتهمت رجلاً بريئاً بجريمة رهيبة ، واذا قلت لرجل فاضل انه قد انتهى شقيقته ، فانه سيجيب قائلاً ان ذلك لا مجد . ويكون لاستيائه مظهر كوميدى . ولكن له أيضاً سببه العميق ، والرجل الفاضل يوضح ، بذلك الجواب ، التناقض التعريفي الموجود بين الفعل الذي اعزوه اليه وبين مبادئه التي اعتنقها مدى الحياة — فانه لا مجد — تعني — انه مستحيل — ، ولكنها تعني ايضاً — انه متناقض — . واذا رأيت رجلاً مسلحاً بسيف فقط ، يهاجم مجموعة من الرشاشات ، فاني سأعتبر عمله لا مجدياً . ولكن ذلك سيكون فقط بسبب اللاتناسب بين هدفه والواقع الذي سيواجهه ، التناقض الذي ألاحظه بين قوته الحقيقية والهدف الذي يرسمه لنفسه . وكذلك فانتا نقول عن حكم انه فاه حين نقارنه بالحكم الذي تكون الحقائق قد أملت به بصورة واضحة . وكذلك

فان معنى الالاجدوى يتجلى بمقارنة نتائج مثل هذا التعليل مع الواقع المنطقي الذي يريد المرء ان يقيمه . وفي كل هذه الحالات ، من ابسطها الى اشدّها تعقيداً ، يكون مقدار الالاجدوى متناسباً بصورة مباشرة مع البعد بين نقطتي المقارنة . هناك زيجات لا مجدية ، وتحديات ، واحقاد ، وصحت وحروب وحتى معاهدات صلح لا مجدية . وتنبثق الالاجدوى بالنسبة لكل من تلك الامور من المقارنة . ولهذا فلدي ما يبرر قولي ان الشعور بالالاجدوى لا ينبثق من مجرد دقة حقيقية او انطباع ، وانما من المقارنة بين حقيقة مجردة وواقع معين ، بين الفعل والعالم الذي يفوق طبيعة ذلك الفعل والالاجدوى هي بصورة اساسية افتراق . وهي لا تكن في العناصر التي تتم مقارنتها ، وانما تولد من مواجهتها ببعضها .

وفي هذه الحالة بالذات ، وعلى مستوى الادراك ، استطيع ان اقول ان الالاجدوى ليست في الانسان (اذا كان لمثل هذا التشبيه أي معنى) وليست في العالم ، وانما في وجودهما معاً . والالاجدوى هي الرابطة الوحيدة التي تجمع بينها الآن . واذا اردت ان احدد نفسي بالحقائق ، فاني اعرف ما يريده الانسان ، وما يقدمه العالم له ، ثم استطيع الآن ايضاً ان اقول انني اعرف ما يوحدهما . ولست في حاجة الى ان احفر عميقاً فيقين واحد يكفي بالنسبة للباحث ، وعليه فقط ان يستخرج منه كل النتائج . والنتيجة المباشرة هي ايضاً قاعدة من قواعد الطريقة . والثلاثية الغريبة التي يسلط عليها الضوء هكذا ليست ، بالتأكيد ، بالاكتشاف الفجائي المدهش . ولكنها تشبه مدلولات التجربة في انها بسيطة بصورة غير محدودة ، ومعقدة بصورة غير محدودة ايضاً . وأول ميزاتها هي انها لا يمكن ان تنقسم . فاذا دمرنا احد شروطها دمرناها

كلها . ولا يمكن ان تكون هنالك لا جدوى خارج الزمن البشري . وهكذا ، وككل شيء آخر ، تنتهي الالجدوى بالموت . ولكن لا يمكن ان تكون هنالك لا جدوى خارج العالم ايضاً ، وانني لاحكم بموجب هذا المقياس البدائي ان فكرة الالجدوى أساسية ، واعتبرها اولى حقائقني . ويظهر حكم الطريقة الذي أثمرت اليه هنا ، فاذا حكمت بان شيئاً ما هو صحيح فيجب علي ان احتفظ بذلك ، واذا حاولت ان احل مشكلة ، فيجب علي علي الاقل ان احاول ان استبعد بالحل نفسه شرطاً من شروط المشكلة . والمدلول الوحيد بالنسبة لي هو الالجدوى واول شرط ، بل الشرط الوحيد في تساؤلي هو ان احتفظ بالشيء ذاته الذي يسعقني ، أي ان احترم بالتالي ما اعتبره ضرورياً فيه . وأكون بهذا قد عرفته بأنه مواجهة وصراع لا ينتهي .

واذا مرت بهذا المنطوق التافه الى نهايته فيجب علي ان أقر بأن ذلك الصراع يشتمل على غياب تام للامل ، (وليس لهذا من علاقة باليأس) ، والرفض المستمر ، (ويجب ان نفهم من ذلك أنه نبذ) وللأمري المذكر ، (الذي يجب علينا الا نقارنه بالقلق عند اللانضج) وكل ما يدمر ، او يستبعد ، او يطرد هذه المتطلبات ، (ولنبدأ بالقبول الذي يهدم الافتراق) ، نجده يدمر الالجدوى ويقلل من شأن الموقف الذي يمكن اقتراحه بعد ذلك . للالجدوى معنى فقط حين لا يتم قبولها .

* * *

هنالك حقيقة واضحة تلوح اخلاقية تماماً : وهي ، ان الانسان هو

دائماً ضحية حقائقه . فانه حين يقر بها ، لا يستطيع ان يحمر نفسه منها . وعلى المرء ان يدفع شيئاً . والانسان الذي يكون مدركاً للاجدوى يرتبط بها الى الأبد . والانسان الحالي من الأمل ، الذي يدرك انه كذلك ، لا يعود يمت للمستقبل بصلة . وهذا طبيعي ، ولكن من الطبيعي ايضاً ان عليه ان يكافح ليتخلص من الكون الذي كان هو قد خلقه . وليس لما ذكرته مغزى الا بموجب هذا التعارض . ولقد اقر البعض بالجو اللابجدي ، مبتدئين بنقد المعقولة . وليس هنالك شيء أدل هنا من تفحص الطريقة التي توصلوا بها الى نتائجهم .

ولكي احصر نفسي بالفلسفات الوجودية ، فاني أجد أنهم كلهم ، بدون استثناء ، قد اقترحوا خلاصاً . فبالتعطيل الغريب ، مبتدئين باللابجدي على خرائب العقل ، وفي كون مغلق محصور بما هو بشري ، نجدهم يؤلهون ما يسحقهم ويحدون سبباً للأمل فيما يفقرهم . وذلك الامل المفروض هو ديني فيهم جميعاً . وهو يستحق الاهتمام .

وسأحلل هنا ، كأمثلة فقط ، بعض الأفكار التي يميل اليها جيستوف وكيركغارد . ولكن ياسبرز سيقدم لنا ، بشكل مصغر ، مثلاً نموذجياً على هذا الموقف . وكنتيجة لذلك ، سيكون الباقيون أشد وضوحاً . انه متروك بلا قوة تتيح له ان يدرك ما وراء الحجب ، غير قادر على سبر غور التجربة ، ولكنه يدرك الكون الذي يقبله الفشل رأساً على عقب ، فهل يتقدم ، او على الأقل يستنتج شيئاً من هذا الفشل ؟ انه لا يأتي بشيء جديد . وهو لم يجد في التجربة غير ربكة ضعفه هو ، ولم تتيح له الفرصة ليخرج بمبدأ مرض . ومع ذلك ، وبدون اي مبرر ، كما يقول لنفسه ، يعلن فجأة عن ذلك الذي هو وراء الحجب ، جوهر

التجربة ، والمفزى الرئيسي للحياة ، حين يكتب : - الا يكشف
الفشل ، بدون ان تكون هنالك اية امكانية للتفسير والايضاح ، لا عن
غياب ، وانما عن وجود ذلك الذي هو وراء الحجب ؟ - انه يعرف
ذلك الوجود ، الذي يوضح كل شيء فجأة وعبر فعل اعمى من أفعال
الثقة البشرية ، بقوله انه - الوحدة اللامتصورة للعام والخاص . -
وهكذا تصبح اللاجدوى إلهاً - باوسع معاني هذه الكلمة - وتصبح
تلك الحاجة الى الفهم ، الوجود الذي يلقي ضوءاً على كل شيء . وليس
هنالك شيء يعد هذا التعليل منطقياً - يمكنني ان اسميه قفزة . ويمكننا
بصورة متعارضة ان نفهم اصرار ياسبرز ، وصبوره اللانهائي المكرس لجعل
تجربة الخفي غير ممكنة الادراك . لانه كلما كان ذلك التقريب عابراً
اكثر ، كان التعريف أشد خلواً ، وذلك الخفي أشد حقيقة بالنسبة له
ذلك لان الانفعال الذي يكرسه لتبيانته هو مباشرة بنسبة الثفرة بين
قوته على التفسير ولا معقولية العالم والتجربة . لقد اتضح بهذا انه كلما
ازدادت مرارة تدمير ياسبرز لمفاهيم العقل الاولى زاد تفسيره للعالم جذرية .
ان نبي الفكر المذلل هذا سيجد في نهاية الذلة وسائل اعادة تولد الكينونة
باعمق ما يمكن ان تكون .

ولقد عودنا الفكر الصوفي على مثل هذه الوسائل . وهذه الوسائل
مشروعة ، تماماً مثل اي موقف يتخذه العقل . ولكنني أنصرف الآن
وكأنني أتناول مشكلة ما بصورة جدية . وبدون أن أتقدم بحكم سابق
على هذا الموقف وقيمه العامة ، او قابليته على اعطاء المعرفة اود ببساطة
ان ابحت ما اذا كان مناسباً للصراع الذي يهمني . وهكذا أعود الى
جيستوف . لقد اورد أحد المعلقين عبارة منقولة عنه ، وهي تستحق

الاهتمام : - الحل الصحيح الوحيد هو بالضبط حيث لا يرى الرأي
 البشري أي حل ، وإلا فلماذا كنا سنحتاج إلى الله ؟ اننا نعود
 إلى الله فقط لنحصل على المستحيل ، أما بالنسبة للممكن ، فالبشر
 يكفون . - وإذا كانت هنالك فلسفة جيستوفية فيمكنني ان اقول انه
 من الممكن تلخيصها بتلك العبارة . لانه ، في نهاية تحليلاته العنيفة ،
 يكتشف اللاجدوى الاساسية في الوجود كله ، ولكنه لا يقول : - هذه
 هي اللاجدوى - ، وانما يقول - هذا هو الله : يجب علينا ان نعتمد
 عليه حتى إذا لم يكن يتجاوب مع اي من انواعنا المعقولة . - ولكي
 لا يكون الارتباك ممكناً فان هذا الفيلسوف الرومي يشير حتى الى ان
 هذا الله قد يكون مملوءاً بالحق وما يثير الاشتزاز ، غير مفهوم ،
 ومتناقضاً ، ولكن كلما اشتدت مظاهر القسوة على وجهه ازداد تعبيره
 عن القوة . وعظمته تكن في لا تماسكه ، وأما برهانه فهو بشريته ،
 وقد يكون على المرء أن ينطلق اليه وبهذه القفزة يحرر نفسه من الاوهام
 المعقولة . وهكذا فان قبول اللاجدوى بالنسبة لجيستوف هو أمر يحدث
 مع اللاجدوى نفسها . إن ادراكها يسمو الى منزلة قبولها ، وكل ما في
 تفكيره من جهد منطقي منصب على اظهارها بحيث يكون من الممكن
 ان ينطلق متدفقاً ذلك الامل الهائل الذي تشتمل عليه . دعني اكرر
 ان هذا الموقف مشروع . ولكنني استمر هنا في بحث مشكلة واحدة
 مع كل نتائجها . وليس علي ان اتفحص انفعال فكري او فعل من افعال
 الايمان والعقيدة . لدي الحياة كلها لافعل ذلك فيها . انني اعرف ان
 المعلل العقلي يتضايق من موقفه جيستوف . ولكنني أشعر أيضاً بأن
 جيستوف محق اكثر من المعلل العقلي ، واريد فقط ان اعرف هل يظل
 مخلصاً لوصايا اللاجدوى .

والآن فاذا أقر بأن اللاحدوى هي نقيضة الأمل ، فانتا نرى ان الفكر الوجودي بالنسبة لجيستوف يفترض اللاحدوى مقدماً ، ولكنه يثبتها ليطردها . ومثل هذه البراعة في التفكير هي خدعة رجل التأمم والتعاويد العاطفية . وحين يقوم جيستوف في مكان آخر بوضع لاجدواه ضد الاخلاقية والعقل السائدين ، فانه يسمي ذلك حقيقة وخلصاً . ولهذا فهناك في هذا التعريف لللاحدوى ، أساسياً : موافقة يصدرها جيستوف فاذا أقر بأن كل قوة تلك الفكرة تكن في الطريقة التي تسير بها ضد آمالنا البدائية ، اذا شعرنا بأن البقاء يعني انه لن تكون هنالك حاجة للموافقة على اللاحدوى ، فيمكننا أن نرى بوضوح ان اللاحدوى تكون قد فقدت مظهرها الصحيح ، وميزتها البشرية والنسبية ، لكي تدخل أبداً هو غير مفهوم ولكنه مُرضٍ . فاذا كانت هنالك لاجدوى فهي في كون الانسان ، وفي اللحظة التي تحول فيها الفكرة نفسها الى نابض الابدية ، فانها تكف عن الارتباط بالوضوح البشري . ولا تكون اللاحدوى حينذاك الدليل الذي يتأكد منه الانسان بدون أن يتفق معه . ويتم تجنب الصراع ويتحد الانسان مع اللاحدوى ، وبذلك يجعل صفات اللاحدوى الاساسية تختفي ، وتلك الصفات هي المضادة وبث الكتابة والافتراق . وهذه القفزة هي تخلص . كما ان جيستوف ، المولع جداً بعبارة هاملت - العصر مزعزع - ، يسجل ذلك بما يشبه الأمل الوحشي الذي يلوح انه يخصه هو . ذلك لأن هاملت لا يقصد ذلك في قوله هذا ، وشكسبير لا يهدف اليه . ان الانتشاء باللامعقولية ، والغبطة المذهلة يحولان الذهن الواضح عن اللاحدوى . وليست للعقل جدوى عند جيستوف ، ولكن هناك شيئاً وراء العقل . والعقل لا يحدي شيئاً بالنسبة للذهن اللاحدي ، وليس هنالك شيء وراء العقل بالنسبة لهذا الذهن .

يمكن لهذه الخطوة ان تلقي بعض الضوء بالنسبة لطبيعة الالاجدوى الحقيقية . نحن نعرف انها لا تستحق الذكر الا في حالة التعادل ، اي انها قبل اي شيء آخر ، في المقارنة وليست في طرفي المقارنة . ولكن يحدث ان جيستوف يؤكد على أحد طرفي المقارنة فيقضي عليها . ان رغبتنا في الفهم ، وحنيننا الى المطلق ، يمكن التعبير عنها فقط ، بل بالضبط ، بمقدار استطاعتنا ان نفهم ونفسر أشياء كثيرة . ولا جدوى في نفي السبب بصورة مطلقة ، فله نظامه الذي به يكون مؤثراً ، وذلك النظام هو نظام التجربة البشرية . ولهذا السبب أردنا ان نجعل كل شيء واضحاً . واذا لم نستطع ان نفعل ذلك ، اذا ولدت الالاجدوى في تلك المناسبة ، فانها تولد بالضبط في نقطة التقاء العقل المؤثر المحدود مع الالامعقولية المتدفقة ابدأ . والآن ، حين يثور جيستوف ضد فرضية هيغلية ، مثل - ان حركة المجموعة الشمسية تحدث بالتطابق مع قوانين لا تتغير ، وتلك القوانين هي سببها - وحين يكرس كل جهوده لاحتباط معقولية سينوزا ، فانه يستنتج ، بالتالي نتائج تقول بخواء العقل ، وكذلك ، يعكس الامور عكساً طبيعياً ، غير مشروع ، ببروز الالامعقولية بين كل الاشياء الاخرى .^(١)

ولكن التحول ليس واضحاً . لانه قد تتدخل هنا فكرة المحدود وفكرة المستوى . وقد تعمل قوانين الطبيعة حتى مرحلة معينة ، أما وراء هذه المرحلة فانها قد تنقلب ضد نفسها لتلد الالاجدوى . أو انها قد قهرت نفسها على مستوى الوصف بدون ان تكون لذلك السبب حقائق على مستوى التفسير . وتتم التضحية هنا بكل شيء من اجل الالامعقولية ،

(١) من اجل فكرة الاستثناء بصورة خاصة ، وضد ارسطو .

وحين يتم طرد الحاجة الى الوضوح ، تختفي الالجدوى مع أحد طرفي مقارنتها .

ومن الناحية الاخرى ، فان الانسان الالجدى لا يقوم بعملية المستويات هذه ، فهو يرى الصراع ، ولا يحتقر العقل بصورة مطلقة ، وهو يقر باللامعقولية . وهكذا فانه يتقبل ثانية ، بنظرة واحدة ، كل مدلولات التجربة ، وهو يميل قليلاً الى ان يقفز قبل ان يعرف . انه يعرف ببساطة انه ليس هنالك في ذلك الادراك المتوفز مكان للأمل .

وسرى عند كيركفارد اكثر مما استطعنا أن نراه عند ليون جيستوف . والحق انه من الصعب تلخيص الفرضيات الواضحة عند مثل هذا الكاتب البارع في التملص . ولكن بالرغم من كتاباته المتناقضة ، واستعاراته ، وخدعه ، وابتساماته الساخرة ، يمكننا ان نشعر خلال مؤلفاته بتنبه ، وفي الوقت نفسه بفهم ، الحقيقة نراها في النهاية تتدفق في مؤلفاته الاخيرة . ذلك لان كيركفارد أيضاً يقوم بتلك القفزة . ولما كان قد دعر في طفولته من المسيحية فانه يعود نهائياً الى اخشن مظاهرها . ويصبح النسخ والتعارض بالنسبة له ايضاً مقياسين لما هو ديني . وهكذا فان الشيء نفسه الذي قاده الى اليأس من معنى وعمق هذه الحياة ، يعطيه الآن حقيقته ورضوخه . المسيحية هي تضحية ، ولكن ما يدعو اليه كيركفارد يتمثل في التضحية الثالثة التي يطلبها اغناطيوس لويولا ، تلك التي يغتبط بها الله : - تضحية الذهن - ^(١) ونتيجة هذه القفزة الغريبة ،

(١) قد يظن انني اعمل المسألة الجوهرية هنا، مسألة الايمان. ولكنني لست اتفحص فلسفة كيركفارد ارجيستوف ، أو ، بعد ذلك ، هوسيرل (يتطلب هذا مكاناً آخر وموقفاً ذهنياً آخر) ، وانما أقوم فقط باستعارة فكرة منهم ، وبرؤية ما اذا كانت نتائجها يمكن ان تناسب الاسس التي وضعتها . المسألة هي مسألة استمرار في المحاولة .

ولكنها يجب ألا تدهشنا . انه يجعل من الالاجدوى مقياس العالم الاخر ،
في حين انها ما تبقى من تجربة هذا العالم . ويقول كيركفارد : - يحد
المؤمن انتصاره في فشله . -

ليس لي ان أتساءل عن التعاليم المثيرة التي يرتبط بها هذا الموقف ،
ولكن يجب علي فقط ان أتساءل عما اذا كان مشهد الالاجدوى ، وميزاتها ،
يبرر هذا الموقف . بيد انني اعرف ان ذلك ليس صحيحاً . بالنسبة لهذه
النقطة . فعند بحث محتوى الالاجدوى ثانية يستطيع المرء ان يفهم
فهماً افضل الطريقة التي ألهمت كيركفارد . فهو لا يحتفظ بالتعادل بين
لامعقولية العالم وحنين الالاجدوى النائر . وهو لا يحترم العلاقة التي تؤلف
الشعور بالالاجدوى . ولما كان واثقاً من عدم امكانية الخلاص من اللامعقولية ،
فانه يريد ان ينقذ نفسه على الأقل من الحنين اليائس الذي يلوح له
عقياً ، خالياً من المضمون . ولكنه اذا كان محقاً في رأيه حول هذه
النقطة فانه لا يمكن ان يكون في نفيه . اذا استعاض عن نداء ثورته
بتمسك عنيف فانه سيقاد الى حيث لا يرى الالاجدوى التي كانت هي
التي أرشدته قبل ذلك ، والى تأليه اليقين الوحيد الذي يملكه ، اللامعقولية .
الشيء المهم ، كما قال آبيه غاليلاني لمدام ديبنيه ، هو ألا نشفى ، وانما ان
نعيش مع أمراضنا . ولكن كيركفارد يريد ان يشفى . والشفاء هو
رغبته الملهوفة ، وهي تظهر خلال كل مذكراته والمجهود العام الذي تبذله
ذهنيته منصب على الخلاص من التعارض الكامن في الوضعية البشرية .
وهذا هو مجهود يائس ، ما دام يدرك سخفه حين يتحدث عن نفسه
وكأنه لا خوف الله ولا التقوى يمكن ان يمنحاه السلام . وهكذا نجد
انه ، عبر الأعذار الكاذبة المتلاحقة ، يعطي اللامعقولية مظهرأ ، والله

صفات اللاجدوى : غير عادل ، غير متأسك ، غير مفهوم . والذكاء وحده يحاول فيه ان يخنق مطالب القلب البشري الكامنة . ولما لا يتم اثبات شيء ، فمن الممكن اثبات كل شيء .

والحق ان كيركفارد نفسه يخبرنا بالطريق التي يسير فيها . ولست اريد ان أقترح شيئاً هنا ، ولكن كيف يفشل المرء في ان يرى في مؤلفاته بتر الروح المتعمد تقريباً ، لمعادلة البتر المقبول بالنسبة للاجدوى . ان ذلك يمثل الفكرة الكامنة في - المذكرات - . - وان الذي يشوهني هو الحيوان الذي يكون جزءاً من المصير البشري ايضاً ... ولكن اعطني جسماً عندئذ . - ثم يقول : - أوه ، خاصة في اول شبابي ، كنت سأعطي كل شيء مقابل ان أكون رجلاً ، حتى ولو لمدة ستة اشهر ، ... ان ما يعوزني بصورة أساسية هو الجسم ، والشروط المادية للوجود . - وفي مكان آخر نجد الرجل نفسه يتبنى نداء الأمل العظيم الذي هبط عبر قرون عديدة ، مشجعاً عدداً لا يحصى من القلوب ، خاصة قلب الانسان اللامجيدي . ولكن الموت بالنسبة للمسيحي ليس نهاية كل شيء وهو يشتمل بصورة لامحدودة على مزيد من الأمل ، أمل اكثر من الأمل الذي تشتمل عليه الحياة ، حتى حين تكون تلك الحياة متدفقة بالصحة والقوة . - ان التعزي بواسطة فضح النفس ما يزال تعزياً ، وهو يسمح للمرء ، كما يمكننا ان نرى ، بأن يأمل العكس ، الذي هو الموت . ولكن حتى اذا كان الشعور بالجماعة يدفع المرء الى ذلك الموقف . فما زال من الواجب علينا ان نقول أن الافراط لا يبرر شيئاً . فهذا يفوق الميزان البشري ، كما يقول المثل ، ولهذا فلا بد ان يكون فوق البشر . ولكن هذا - لذلك - هو أمر غير ضروري ، فليس هنالك يقين منطقي

في هذا ، كما انه ليس هنالك احتمال تجريبي ايضاً . وكل ما أستطيع ان أقوله هو أن ذلك يفوق ميزاني في الواقع . واذا لم أشتق منه نفياً ، فأنني لا أريد على الاقل ان أوّس أي شيء على اللامفهوم . أريد أن أعرف هل أستطيع أن أعيش بما أعرفه ، وبه وحده . ويقال لي ثانية إن الذكاء يجب ان يضحى بكبريائه هنا وان العقل يجب ان ينحني . ولكنني اذا رأيت حدود العقل فأنني لا انفيه ، لأنني ادرك قواه النسبية . أريد فقط ان أظل في هذه الطريق الوسط حيث يستطيع الذكاء ان يظل واضحاً . فاذا كان هذا هو ما يؤلف كبريائه فأنني لا اجد هنالك ما يدعو الى التخلي عنه . لا شيء هنالك أعمق من وجهة نظر كيركفارد مثلاً التي يكون اليأس بها حالة وليس حقيقة — حالة الخطيئة نفسها . لأن الخطيئة هي التي تبعد عن الله ^(١) . واللاجدوى ، التي هي الحالة الميتافيزيكية للانسان المدرك ، لا تقود الى الله . ولعل هذه الفكرة ستوضح اكثر اذا جازفت بهذه العبارة المثيرة : اللاجدوى هي خطيئة بدون الله .

انها مسألة العيش في حالة اللاجدوى تلك . انني اعرف على ماذا تؤسس ، هذا الذهن وهذا العالم يتوتران ضد احدهما الآخر دون ان يكون في وسعهما ان يتقبل احدهما الآخر . انني اسأل عن قاعدة حياة تلك الحالة ، ولا أجد غير ما يهمل أساسها ، وينفي أحد طرفي المعارضة المؤلمة . ويتطلب مني استسلاماً . انني اسأل عما تتضمنه الوضعية التي هي وضميتي كما ارى ، واعرف انها تتضمن الغموض والجهل ، ويقال لي إن

(١) لم أقبل — تمتنع عن الله — لان ذلك يسمو الى منزلة التوكيد .

هذا الجهل يفسر كل شيء وان هذا الظلام هو نوري . ولكن ليس هنالك جواب لما قصدته ، وهذه الغنائية المثيرة لا تستطيع ان تحفي التعارض عني . يجب ان يدبر المرء وجهه اذن . وقد هتف كيركفارد محذراً : - اذا لم يكن للانسان ادراك ابدى ، واذا كانت في اعماق كل شيء قوة وحشية صخابة فقط ، تولد كل شيء ، كبيراً كان أم صغيراً ، في عاصفة الانفعالات المظلمة ، واذا كان الحواء الذي لا قعر له والذي لا يستطيع شيء ان يملأه ، يكمن في كل الاشياء ، فماذا ستكون الحياة غير اليأس ؟ - ولكن هذا النداء لن يوقف الانسان . اللامجدي . فالبحت عن الصحيح ليس البحث عن المرغوب . واذا كان يجب على المرء ليتجنب السؤال الملح : - ماذا ستكون الحياة ؟ - ان يأكل زهور الوم ، كالخمار ، فان الذهن اللامجدي يفضل ، بدلاً من ان يتخلى عن نفسه لليأس ، ان يتبنى جواب كيركفارد بدون خوف : - اليأس . ان النفس المصممة ، برغم كل شيء ، تستطيع ان تدبر امورها دائماً .

* * *

انني أسمح لنفسي هنا بأن أسمى الموقف الوجودي انتحاراً فلسفياً . ولكن هذا لا يشتمل على حكم . وانما هي طريقة مريحة في بيان الحركة التي ينفي بها الفكر نفسه ويميل الى التفوق على نفسه بنفيه هذا . النفي هو الله بالنسبة للوجوديين . واذا أردنا الدقة ، فان الاحتفاظ بذلك الله يتم فقط عبر نفي العقل البشري ^(١) . ولكننا نجد ، كالانتحار ، ان الآلهة يتغيرون تبعاً لتغير البشر . وهنالك طرق عديدة للقيام بالقفزة ،

(١) دعني أبين ثانية . - لست أناقش الاعتراف بالله هنا ، وانما المنطق المؤدي الى هذا الاعتراف .

بيد ان الامر الجوهري هو ان تم القفزة ذاتها . قد تنبثق ألوان النفي هذه ، والمتناقضات النهائية التي تنفي العقبة التي لم يتم القفز فوقها بعد ، (وهذا هو التناقض الذي يهدف اليه هذا التعليل) ، قد تنبثق من وحي ديني معين تماماً كما تنبثق من النظام التعليلي . انهم يطالبون بالخالد دائماً ، وهم يقومون بالقفزة في هذا وحده .

عليّ ان اكرر ان التعليل المطور في هذا البحث يتخلى تماماً عن الموقف الروحي الواسع الانتشار في عصرنا المثقف ، ذلك الموقف الذي يستند على المبدأ القائل بان كل شيء هو العقل ، والذي يهدف الى تفسير العالم . وانه لأمر طبيعي اعطاء وجهة نظر واضحة عن العالم بعد قبول الفكرة القائلة بانه يجب ان يكون واضحاً . بل ان هذا امر مشروع ، ولكنه لا يخص التعليل الذي نتبعه هنا . والحق اننا نهدف الى القاء ضوء على الخطوة التي يقوم بها الذهن حين ينتهي به الامر الى العثور على معنى وعمق في الفلسفة التي يبدأ منها والتي تقول بعدم وجود اي معنى في العالم . وأشد هذه الخطوات تأثيراً هي الخطوة الدينية ، وهي تتضح في فكرة اللامعقولية . ولكن أشدها تناقضاً وأعماقها مغزى هي تلك التي تنسب اسباباً معقولة لعالم كانت بالاصل تتخيله خالياً من اي مبدأ موجه . ومن المستحيل في أية حالة الوصول الى النتائج التي تهمننا بدون ان نعطي فكرة عن هذا الذي تحققه روحية الحنين المكتشب .

سأفحص فكرة - القصد - فقط ، التي نادى بها هوسيرل واصحاب مبدأ الظواهر . فطريقة هوسيرل كانت بالاصل تنفي النسق العقلي الكلاسيكي . دعني اكرر ، فالتفكير ليس التوحيد ولا جعل المظهر مألوفاً

تحت ستار مبدأ عظيم . التفكير هو ان نتعلم من جديد كيف نرى ، وكيف نوجه ادراكنا ، وكيف نجعل من كل تصور مكاناً متميزاً . وبعبارة اخرى ، فان مبدأ الظواهر لا يفسر العالم وانما يريد فقط ان يكون وصفاً للتجربة الفعلية . انه يؤكد الفكر اللامعدي ببيانه البدائي القائل بانه ليست هنالك حقيقة ، وانما هنالك حقائق . فمن نسائم المساء الى هذه اليد التي هي على كتفي ، تكون لكل شيء حقيقته ، والادراك يضيئها بانتباهه اليها . والادراك لا يشكل موضوع فهمه ، وانما هو يركز فقط ، انه عملية الانتباه ، واذا اقتطفنا شيئاً من برغسون امكننا ان نقول انه يشبه آلة العرض التي تتركز فجأة في صورة . والفرق هو أنه ليس هنالك سيناريو ، وانما هنالك توضيح متعاقب غير متماسك . وفي ذلك الفانوس السحري تكون لكل صورة ميزاتها . والادراك يعلق في التجربة موضوعيات انتباهه ويعزلها بواسطة معجزته ، فتصبح لذلك وراء كل الاحكام . وهذا هو - القصد - الذي يميز الادراك . ولكن هذه الكلمة لا تعني شيئاً من معاني النهائية ، وانما تؤخذ بما تعنيه من - الاتجاه - واهميتها الوحيدة هي في الوصف المكاني .

يلوح للوهلة الاولى انه ، بهذه الطريقة لا يناقض شيء ما الروحية اللامعدي . فالتواضع الفكري هذا الذي يحصر نفسه بوصف ما لا يريد تفسيره ، وذلك الضبط الذي ينجم منه بصورة متناقضة غنى عميق في التجربة ومولد العالم ثانية بكل ما فيه من كثرة ، كل تلك الامور هي عمليات لامعدي ، على الاقل للوهلة الاولى . لأن طرق الفكر ، في هذه الحالة كما في الحالات الأخرى ، تتخذ مظهرين دائماً ، الاول سايكولوجي

والثاني ميتافيزيكي^(١) ، ولهذا فانها تتقبل حقيقتين . فاذا كانت فكرة المقصود تدعى فقط بتوضيح موقف سايكولوجي ، تستنفد فيه الحقيقة الواقعية بدلاً من ان يتم تفسيرها ، فلا شيء يفصلها في الواقع عن الروحية اللاجندية . انها تهدف الى تعداد ما لا تستطيع تخطيه . انها تؤكد فقط انه بدون اي مبدأ موحد ، يستطيع الفكر ان يقتبط بوصف وفهم كل مظهر من مظاهر التجربة . وهكذا تكون الحقيقة التي يتضمنها المظهران سايكولوجية في طبيعتها . انها تدل فقط على - الامة - التي يستطيع الواقع ان يعطيها . انها طريقة في ايقاظ عالم نائم ، وجعله واضحاً حياً في الذهن . بيد انه اذا حاول المرء ان يوسع فكرة الحقيقة تلك ، ويعطيها اساساً معقولاً ، اذا ادعى المرء بانه بهذه الطريقة يكتشف - جوهر - كل موضوعي من موضوعيات المعرفة فانه يعيد الى التجربة عمقها . لأن ذلك غير مفهوم بالنسبة للذهن اللاجدي . والآن فان هذا التردد بين الاعتدال والثقة الملحوظين في الموقف القصدي ، وهذا التلاؤم المتقطع للفكر المعني بالظواهر ، هما اللذان سيوضحان التعليل اللاجدي افضل من اي شيء آخر .

ذلك لأن هوسيرل يتحدث ايضاً عن - جوهرات متطرفة في موقتيتهما - يلقي الانتباه ضوءه عليها ، وهو يشبه افلاطون في هذا . فكل الاشياء لن يتم تفسيرها بشيء وانما بكل الاشياء . انني لا ارى اي فرق . ولنشئ بان تلك الافكار الخاصة بتلك الجوهرات التي يفتجها الادراك في نهاية كل وصف لا يمكن ان توصف الآن باعتبارها نماذج كاملة . ولكنه قد تم

(١) حتى أشد علوم المعرفة قوة تشتمل على الميتافيزيك ، ولدرجة ما فان ميتافيزيكية عدد كبير من المفكرين المعاصرين تتألف من انهم لا يملكون شيئاً يقدمونه غير علم المعرفة .

بيان كونها حاضرة مباشرة في كل مدلول من مدلولات المعرفة الحسية . فلم تعد هنالك فكرة واحدة تفسر كل شيء ، وانما هنالك عدد لا نهاية له من الجوهريات التي تعطي معنى لعدد لا نهاية له من الموضوعيات . يتوقف العالم ولكنه يضيء ايضاً . وتصبح واقعية افلاطون بديهية ، ولكنها ما تزال واقعة . لقد كان كيركفارد مبتلعاً في الله كيركفارد ، وغاص بارمينيدس بالفكر في الواحد . ولكن الفكر هنا يندفع نحو تعدد الهي تجريدي . وليس هذا كل شيء ، لأن هذين الخيالات والتصورات ايضاً تخص - الجوهريات المتطرفة في مؤقتيتها - . وفي عالم الافكار الجديد ، يتعاون اصحاب الطبائع المزدوجة مع الجنس الاشد تواضعاً ، جنس الانسان المتمدن .

كان الانسان اللاعجدي يجد في ذلك الرأي السايكولوجي الصرف القائل بان لكل مظاهر العالم ميزاتها الخاصة حقيقة ومرارة . فالقول بان لكل شيء ميزاته الخاصة يشبه القول بان كل شيء هو مسار ومعادل . ولكن المظهر الميتافيزيكي لتلك الحقيقة مغال في البعد بحيث ان الانسان اللاعجدي يشعر عبر رد فعل بدائي بأنه ربما كان اقرب الى افلاطون . والحق انه يتعلم ان كل تصور يفترض مقدماً جوهرأ مساوياً له في ميزاته . وفي هذه الفكرة يكون العالم خالياً من الطبقات ، يكون جيشاً مؤلفاً من الجنرالات وحسب . والحق ان الوصول الى الخوارق امر قد تمت ازالته . ولكن اتجاهاً مفاجئاً في الفكر يعيد للعالم نوعاً من الجوهر الكامن المحزأ الذي يعيد للكون عمقه .

هل يخيفني انني أغرقت في بحث فكرة بحثها خالقوها أوسع البحث

وأعقده ؟ انني أكتفي بقراءة بيانات هوسيرل التي يلوح انها متعارضة ،
ومع ذلك فهي منطقية بصورة قوية اذا تم قبول ما ذكرناه : ان ما هو
صحيح ، هو صحيح بصورة مطلقة وبذاته . والحقيقة واحدة ، بذاتها
تعرف ذاتها ، بها اختلفت المخلوقات التي تدركها ، بشراً ، او عمالقة ،
او ملائكة ، او آلهة . - ان العقل ينتصر ويعلن قائلاً : لا يستطيع ان
أنكر . فماذا تعني بياناته في عالم اللاجدرى ؟ ان الادراك الحسي في الملاك
او الإله لا يعني شيئاً بالنسبة لي . وذلك الموضوع الهندسي الذي يصادق
فيه العقل المقدس على عقلي سيكون دائماً امرأ غير مفهوم بالنسبة لي .
فهناك ايضاً أرى قفزة ، وبالرغم من انها تم تجريباً الا انها تعني بالنسبة
لي نسيان ما لا اريد نسيانه . وحين يتساءل هوسيرل بعد ذلك : - لو
كانت كل الكتل الخاضعة للانجذاب ستختفي ، فان قانون الجذب لن يدر
ولمّا سيظل دون ان يكون في الوسع تطبيقه . - انني أعرف انني
أواجه ميتافيزيكية معزية ، واذا كنت سأكتشف الموضوع الذي يفترق
فيه الفكر عن الدليل ، فليس علي الا ان أعيد قراءة التعليل الموازي
الذي يقول به هوسيرل بشأن الذهن : - لو استطعنا ان نتأمل بوضوح
في قوانين العمليات الذهنية فانها ستلوح خالدة لا متغيرة ، تماماً كالقوانين
الأساسية في العلم الطبيعي النظري - وهكذا فستكون صحيحة حتى اذا
لم تكن هنالك عملية ذهنية . وحتى اذا لم يوجد الذهن ، فان قوانينه
ستكون موجودة ! وهكذا أجد ان هوسيرل يريد ان يجعل من الحقيقة
السايكولوجية حقيقة معقولة . فبعد انكاره القوة المتأسكة في العقل
البشري ، يقفز بهذا الى العقل الخالد .

ان فكرة هوسيرل عن - الكون الملموس - لا يمكن ان تدهشي .

واذا قيل لي ان الجوهريات ليست كلها شكلية وانما بعضها هو مادي ،
ان الاولى هي موضوع المنطق والثانية هي موضوع العلم ، فهذه هي مسألة
تعريف . ويقال لي ان المجرد يشير الى جزء فقط ، دون ان يكون
منسجماً بذاته ، من كون مجرد . ولكن التردد الذي بيئته يسمح لي ان
ألقي ضوءاً على ربكة هذه الامور . لأن ذلك قد يعني ان الموضوعي
الملحوس في انتباهي ، هذه السماء ، وانعكاس ذلك الماء على هذه السترة ،
هو الذي يحتفظ وحده باستقلال الواقعي الذي يعزله اهتمامي في العالم .
ولن أنكر ذلك . ولكن ذلك قد يعني ايضاً ان هذه السترة نفسها هي
عامة ، وان لها جوهرها الخاص الكافي ، وانها تخص عالم الاشكال .
وهكذا أدرك انه لم يتغير الا ترتيب العرض . فلم يعد هذا العالم ينعكس
في كون أعلى ، ولكن سماء الأشكال تتمثل في حشد صور هذه الأرض .
ولا يبدل هذا شيئاً بالنسبة لي . وبدلاً من ان أواجه هنا تذوقاً للملحوس ،
ولمعى الوضعية البشرية ، أجد عمقاً فكرياً غير مقيد بصورة كافية لتعميم
الملحوس نفسه .

* * *

من غير المجدي ان نندهش من التعارض الواضح الذي يقود الفكر
الى نفي ذاته بالاتجاهات الماكسة في العقل المذلل والعقل المنتصر . فمن
إله هوسيرل المجرد الى إله كيركفارد الذي يبهر الأنظار ليس هنالك بعد
كبير . ان العقل واللامعقولية يؤديان الى التبشير ذاته . والحق ان طريقة
الوصول لا تهم الا قليلاً ، وانما تكفي إرادة الوصول . والفيلسوف
التجريدي ، والفيلسوف الديني يبدآن من الفوضى نفسها ، ويعاون احدهما
الآخر في القلق ذاته . ولكن الأمر الجودري هو التفسير . والحنين

الكثير هنا هو أقوى من المعرفة . ومن الأمور التي لها دلالتها ان تفكير العصر هو في وقت واحد تفكير مشبع بفلسفة تقول بلامغزى العالم ، وتفكير منقسم على نفسه بالنسبة لنتائجه أشد الانقسام . انه متأرجح دائماً بين التطرف في اسباغ التعليل المعقول على الواقع الأمر الذي يميل الى تقسيم ذلك الفكر الى أسباب قياسية ، وبين التطرف في اللامعقولية التي تميل الى تأليفه . ولكن هذا الافتراق سطحي فقط . انه أمر خاص بالتوفيق بينهما ، وفي أية واحدة من الحالتين نجد ان الفقرة تكون كافية . ومن المظنون خطأ دائماً ان فكرة العقل هي فكرة ذات اتجاه واحد فقط . والحق انه مهما يكن هذا المفهوم متشدداً في مطامحه ، فانه يشبه الأشياء الأخرى في لاستقراره . فللعقل مظهر بشري تماماً ، ولكنه قادر ايضاً على الاتجاه نحو المقدس . ومنذ بلوتينوس ، الذي كان أول من وفق بينه وبين الجو الخالد ، تعلم العقل الرجوع عن أعز مبادئه ، التعارض ، لكي يكون في وسعه ان يجعل في ذاته أشد المبادئ غرابة وسحراً ، مبدأ المشاركة^(١) . انه وسيلة من وسائل الفكر ، وليس الفكر نفسه . ثم ان فكر الانسان هو حينئذ المكتئب .

وتاماً كما استطاع العقل ان يطمئن سوداوية بلوتينوس ، فانه يقدم

(١) أ — كان على العقل في ذلك الوقت ان يكيف نفسه او يموت ، انه يكيف نفسه . وبعد ان يكون العقل منطقياً عند بلوتينوس ، فانه يصبح جمالياً ، ويحل التشبيه على الفرض والنتيجة المنطقيين .

ب — واكثر من ذلك . فان هذه ليست مساهمة بلوتينوس الوحيدة في علم الظواهر ، فقد تجلّى هذا الموقف كله في المفهوم الذي كان يتشبع به هذا الفكر الاسكندراني بحيث انه ليست هنالك فكرة الانسان وحسب ، وانما فكرة سقراط ايضاً .

للعذاب الحديث وسائل ليهدي نفسه بها في الشكل المألوف لما هو خالد .
ولكن الذهن اللامعدي ليس محظوظاً هكذا . فهو لا يرى العالم بهذه
المعقولة ، ولا بهذه اللامعقولة . انه غير مبرر وحسب . وليس للعقل
من حدود مع هوسيرل مطلقاً . اما اللاجدوى فانها ، على العكس ، تضع
حدودها لكونها غير قادرة على تهدئة عذابها . ويقول كيركغارد بصورة
مستقلة ان حداً واحداً يكفي لكي ينفي ذلك العذاب ، ولكن اللاجدوى
لا تذهب الى ذلك المدى . فبالنسبة لها يكون ذلك الحد موجهاً فقط
نحو مطامح العقل . ان فكرة اللامعقولة ، كما يفهمها الوجوديون ، هي
العقل الذي يرتبك ، ويهرب عبر نفيه لنفسه . اللاجدوى هي العقل
الواضح الذي يلاحظ حدوده .

ولا يدرك الانسان اللامعدي الا في نهاية هذا المر الصعب دوافعه
الحقيقية . وبمقارنة إلحاحه الداخلي ما يقدم اليه ، يشعر فجأة بأنه مقدم
على التراجع . وفي كون هوسيرل يتضح العالم ويصبح ذلك التلief على
المألوف ، الذي يضره القلب ، غير مجد . اما في الهام كيركغارد فيجب
التخلي عن تلك الرغبة في الوضوح اذا كان يراد اشباعها . فالخطيئة لا
تتمثل في المعرفة (وإلا لكان الجميع أبرياء) وانما تتمثل في الرغبة في
المعرفة . والحق انها الخطيئة الوحيدة التي يستطيع الانسان اللامعدي ان
يشعر بانها تؤلف جريمته وبرأته معاً . ان أمامه حل تصبح فيه متناقضات
الماضي كلها لعباً جدلية . ولكنه لم يجرب ذلك هكذا . اذ يجب
الاحتفاظ بحقيقة تلك المتناقضات ، وتتألف هذه الحقيقة من انها لا يتم
ارضائها واشباعها . انه لا يريد التبشير .

ان تعليلي يريد ان يكون مخلصاً للدليل الذي أثاره . وذلك الدليل

هو الالاجدي . ان ذلك الافتراق بين الذهن الذي يرغب والعالم الذي
يخيب ، حيني الى الوحدة ، هذا الكون الجزأ والتناقض الذي يجمع
الأجزاء معاً ، تلك الامور كلها هي الدليل . فكير كفارد يكبت حيني ،
وهوسيرل يجمع أجزاء ذلك الكون . ولكن هذا هو ما لم أكن أتوقعه .
كانت المسألة تتعلق بعيش ، والتفكير بهذه الامور المزعزعة ، وبمعرفة ما
اذا كان المرء يقبل ام يرفض . وليس هنالك مجال لبرقعة الدليل ، لكم
اللاجدوى بانكار احد طرفي معادلتها . ومن الجوهرى ان يعرف المرء
هل يستطيع ان يعيش معها ، ام ان المنطق ، من الناحية الاخرى ،
يجعل المرء يموت بها . ولست مهتماً بالانتحار الفلسفي ، وانما بالانتحار
العادي . اني اريد فقط ان أنقيه وأخلصه من محتواه العاطفي وان
أعرف منطقته وتماسكه . وكل موقف آخر يعني بالنسبة للذهن الالاجدي
الخداع وتراجع الذهن امام ما كان الذهن نفسه قد كشف عنه . ويقول
هوسيرل انه يطيع الرغبة في الخلاص من المادة المتأصلة ، عادة العيش
والتفكير ضمن ظروف من الوجود ، معينة معروفة ومريحة - ، ولكن
القفزة النهائية تعيد فيه الخالد ، والراحة التي توافق ذلك . ولا تمثل
القفزة خطراً شديداً كما يتوقع منها كيركفارد ان تفعل . فالخطر ،
بالمعكس ، يكن في اللحظة الدقيقة التي تسبق القفزة . والقدرة على
البقاء فوق القمة التي تدير الرأس - هذا هو التماسك ، والبقية هي الزيف .
وأنا أعرف ايضاً ان الضعف لم يلهم مثل هذه التوافقات الملحوظة لأحد
كما ألهم كيركفارد بها . بيد انه اذا كان للضعف مكانه في مشاهد التاريخ
اللامكترنة ، فليس له مثل هذا المكان في التحليل الذي نعرف الآن
أهميته والحاحه .

الحرية الالاجدية

والآن بعد ان أتممت الشيء الرئيسي ، ما تزال لديّ حقائق معينة لا أستطيع ان أبتعد عنها . فما أعرفه ، ما هو أكيد ، وما لا أستطيع ان أنكره ، وما لا أستطيع ان أرفضه - هذا هو المهم . أستطيع ان أنفي كل شيء في هذا القسم من أقسامي ، الذي يعيش على حنين غامض ، ما عدا هذه الرغبة في الوحدة ، هذا الشوق الى الحل ، تلك الحاجة الى الوضوح والتأكد . أستطيع ان أثبت بطلان كل شيء يحيط بي في هذا العالم ، بما يسيء اليّ او يسعدني ، ما عدا هذه الفوضى ، هذه الفرصة السائدة ، والتساوي المقدس المنبثق من الفوضى . ولست اعرف هل ان لهذا العالم معنى هو أبعد من العالم ، ولكنني اعرف أنني لا أعرف ذلك المعنى وانه من المستحيل عليّ الآن ان اعرفه . فماذا يمكن ان يعني بالنسبة لي المعنى الذي يكن خارج وضعيتي ؟ أستطيع ان افهم بمقياس ما هو بشري فقط . فما ألمسه - ما يقاومني - هذا هو ما افهمه . وهذان اليقينان - شهوتي الى المطلق والوحدة ، واستحالة تقليص هذا العالم الى مبدأ معقول مقبول - اعرف جيداً انني لا أستطيع التوفيق بينهما . فأية حقيقة اخرى أستطيع ان أقر بدون ان أكذب ، بدون ان آتي بأمل ليس عندي شيء منه ولا يعني شيئاً ضمن حدود وضعيتي ؟

لو كنت شجرة بين الاشجار ، قطرة بين الحيوانات ، فقد كان سيصبح لهذه الحياة معنى ، او ان هذه المشكلة لن تنهض ، اذ انني كنت سأنتهي الى هذا العالم . يجب ان أكون هذا العالم الذي أقف الآن ضده بسبب ادراكي الكامل وإصراري الكامل على المألوف . وهذا السبب

المضحك هو الذي يجعلني أقف ضد كل الحقيقة ، ولا يمكنني ان اشطبه بحرة قلم . يجب ان احتفظ بما اعتقد انه حقيقي . ويجب عليّ ان أدعم ما يلوح لي واضعاً حق ولو كان ضدي أنا . وهل يؤلف أساس ذلك الصراع ، ذلك الافتراق بين العالم وذهني ، غير إدراكي له ؟ فإذا أردت لذلك الاحتفاظ به ، فيمكنني ان أفعل ذلك بواسطة إدراك مستمر ، مستعاد دائماً متوفر أبداً . هذا هو ما يجب ان أتذكره في هذه اللحظة . وهنا تعود اللاجدوى ، الواضحة ، ومع ذلك التي يصعب الفوز بها ، الى حياة الانسان لتجد موطنها هناك . وهنا ايضاً ، يستطيع الذهن ان يترك طريق المجهود الواضح ، ذلك الطريق الكثيب المحمل المقفر . ويظهر هذا الطريق الآن في الحياة اليومية . انه يوجد في عالم الضمير غير المعروف - هو - ولكن الانسان صار يدخله بثورته وبوضوحه . لقد نسي كيف يأمل . وجهنم الحاضر هي مملكته أخيراً ، وصارت المشاكل كلها تستعيد ارهاق حافاتها الحادة ، وصار الدليل الجرد يتراجع امام شعرية الأشكال والألوان ، والصراعات الروحية صارت تتجسد وتعود الى الملجأ التمس ، والرائع ، في قلب الانسان . ولكن شيئاً من ذلك لم يستقر او يحل ، وانما تحولت أشكالها بأجمعها . فهل يموت المرء ؟ يتخلص بالقفزة ؟ ويعيد بناء هيكل من الأفكار والأفكار يكون مؤيداً له ؟ ثم ، بالمعكس ، هل سيقبل المرء ذلك الرهان الذي يمزق القلب ، المعجيب ، اللاجدوى ؟ دعنا نقم بمجهود نهائي في هذا الصدد ونخرج بكل استنتاجاتنا . ستمود المحبة ، والجسد ، والخلق ، والفعالية ، والتبل البشري الى استئناف أمكنتها في هذا العالم المجنون . وسيجد الانسان هنالك أخيراً ، مرة أخرى ، خمر اللاجدوى ، وخبز اللاكتراث ، الذين يطعم بها عظمته .

دعنا نصر ثانية على الطريقة : انه امر راجع الى الاصرار المستمر .
ان الانسان اللامعدي يواجه الاغراء في نقطة معينة على طريقه . ولا يعلم
التاريخ امثلة على ذلك من اديان او انبياء ، حتى بدون آلهة . المطلوب
منه ان يقفز . وكل ما يستطيع ان يقفز . وكل ما يستطيع ان يرد به
هو انه لا يفهم ، وان الامر ليس واضحاً . انه ، حقاً ، لا يريد ان
يفعل اي شيء غير ما يفهمه تماماً . انه متأكد من ان هذه هي خطيئة
الفرور ، ولكنه لا يفهم فكرة الخطيئة ، وهو متأكد من ان جهنم قد
تنتظره ، ولكنه لا يملك الخيال الكافي ليرى ذلك المستقبل الغريب ،
وهو متأكد من انه سيضيع الحياة الخالدة ، ولكن هذا يلوح له اعتباراً
كسولاً . هنالك محاولة لجعله يعترف بجرمه . وهو يشعر بانه بريء .
الحق ان هذا هو كل ما يشعر به ، براءته التي لا يمكن تبديلها . وهذا
هو ما يسمح له بكل شيء . ولهذا فان ما يطلبه من نفسه هو ان
يعيش فقط بما يعرفه ، وان يهب نفسه ما هو اكيد وألا يهبها ما هو
غير اكيد . ويقال له انه ليس هنالك شيء هو هو . ولكن هذا يجد
ذاته هو اكيد ، وهو معنى بهذا ، فهو يريد ان يرى اذا كان ممكناً ان
يعيش بدون اي نقض .

* * *

استطيع الآن ان اتغلغل في فكرة الانتحار . لقد توفر حق الآن
شعور بالحل الممكن اعطاؤه . وفي هذه المرحلة يتم عكس المسألة . كانت
في السابق فكرة ايجاد ما اذا كانت الحياة تتطلب ان يكون لها معنى
لكي تعاش . ويتضح الآن ، بصورة عكسية ، انها تعاش بصورة افضل
اذا لم يكن لها معنى . فعيش تجربة ، حياة معينة ، هو قبولها تماماً .

والآن ، فلن يعيش احد هذا المصير ، عالمًا بأنه لا مجدي ، ما لم يحاول ان يفعل كل شيء يؤدي الى اخضاع تلك الالاجدوى لنور الادراك . فنفي احد طرفي التناقض الذي يعيش فيه يشبه التخلص منه . والغاء الثورة المدركة هو اغفال المشكلة . وهكذا يتم حل فكرة الثورة الدائمة الى التجربة الفردية . والمعيش هو ابقاء الالاجدوى على قيد الحياة . وبقاء الالاجدوى على قيد الحياة هو ، قبل اي شيء آخر ، التأمل فيها . وبمعكس ما يقوله يوريديس ، نجد ان الالاجدوى تموت فقط حين نلتفت عنها . وهكذا فان الثورة هي احدى المواقف الفلسفية الوحيدة المتأسكة . انها المواجهة الدائمة ، بين الانسان وغموضه ، والاصرار على شفافية ووضوح مستحيلين . وذلك الموقف يتحدى العالم من جديد في كل ثانية . وكما اتاح الخطر للانسان الفرصة الفذة ليفتتم يقظته ، فان الثورة الميتافيزيكية تجعل ذلك التيقظ يشمل التجربة كلها . وذلك هو مثول الانسان الدائم امام عيني نفسه ، وهو ليس طموحًا ، لأنه خال من الامل . ان تلك الثورة هي يقين المصير الساحق بدون الاستسلام الذي كان يجب ان يرافق ذلك اليقين .

وهنا يمكننا ان نرى الى اي حد تبتمد التجربة الالاجدية عن الانتحار . وقد يظن ان الانتحار يتبع الثورة — ولكن ذلك ظن خاطيء . لأنه لا يمثل النتيجة المنطقية للثورة ، وانما هو العكس ، وذلك بموجب القبول الذي يفترضه مقدماً . فالانتحار ، مثل القفزة ، مقبول حين يكون متطرفاً . كل شيء ينتهي ويعود الانسان الى تاريخه الاساسي . انه يرى مستقبه — ذلك المستقبل الفذ البشع — وهو يهرع اليه . والانتحار ، بطريقته ، يحل الالاجدوى . انه يضيق الحناق على الالاجدوى بنفس الموت .

ولكنني اعرف انه من اجل ان يظل المرء حياً ، لا يمكن حل اللاجدوى .
انه يتخلص من الانتحار الى الحد الذي يكون فيه ، في الوقت نفسه ،
يقظة ورفضاً للموت . انه ، في الحد المتطرف من الافكار الاخيرة
للانسان المحكوم ، رباط الحذاء الذي يراه ، رغم كل شيء ، على بعد عدة
ياردات ، على حافة سقطته المدوخة . والحق ان نقيض الانتحار هو الانسان
المحكوم عليه بالموت .

تلك الثورة تهب الحياة قيمتها ، وحين تنتشر لتشمل طول الحياة
كله ، فانها تهب تلك الحياة روعتها . والشخص الذي لا تحجب رؤيته
الحجب لا يجد منظراً ابهى من منظر الادراك الذي يعالج واقعاً هو
وراء حدوده . وليس هنالك ما يضارع بصر الكبرياء البشري ، كما ان
محاولة الانتقال منه لا تجدي نفعاً . والضبط الذي يفرضه الذهن على
نفسه ، والارادة المستدعاة من لا شيء ، والصراع وجهاً لوجه ، كل تلك
الامور تتميز بصفات غير عادية . وافقار ذلك الواقع الذي تؤلف
لابشريته روعة الانسان هو امر اقرب الى افقار الانسان نفسه . وهنا
افهم لماذا اجد ان العقائد التي تفسر لي كل شيء تضعفني انا في الوقت
نفسه . انها تخفف عني عبء حياتي ، بيد انه من الواجب علي ان احمل
هذا العبء وحدي . وفي هذه الحالة لا استطيع ان اتصور ان الميتافيزيكية
الشكوكية يمكن ان ترتبط باخلاقية النبذ .

الادراك والثورة ، هذان الرفضان هما نقيضا النبذ والتخلي . وكل شيء
غير مستسلم ، ومنفعل في القلب البشري يسرع بهما ، على النقيض ، بحياته
هو . ومن الامور الجوهرية ان يموت الانسان بغير رضا وبدون ان

يكون ذلك بارادته . فالانتحار هو تبرؤ . والانسان الالمجدي لا يستطيع إلا ان يستنفد كل شيء الى نهايته المرة ، ويفرغ نفسه . والتفاهة هي توثره المتطرف ، وهو يحافظ على ذلك باستمرار بالمجهود الذي يبذله وحده ، لأنه يعرف به في ذلك الادراك ، وبذلك الثورة اليومية ، انما يقدم البرهان على حقيقته الوحيدة ، التي هي التحدي . هذا يمثل النتيجة الاولى .

* * *

واذا كنت سأظل في ذلك الموقف المعد سابقاً ، الذي يتألف من الخروج بكل الاستنتاجات ، (ولا شيء غيرها) ، تلك الاستنتاجات التي تشمل عليها الفكرة المكتشفة حديثاً ، فاني أواجه بذلك تعارضاً ثانياً . ولكي أظل مخلصاً لتلك الطريقة ، فليس لديّ ما يمكنني ان افعله بالنسبة لمشكلة الحرية الميتافيزيقية . ان معرفة كون الانسان حراً او غير حر ، أمر لا يعني . أستطيع فقط ان أجرب حريقي أنا . ولا أستطيع ، بالنسبة لحريقي هذه ، ان احصل على أفكار عامة ، وانما على بعض المدارك الواضحة القليلة . ان مشكلة - الحرية بذاتها - هي مشكلة لا لا معنى لها . لأنها مرتبطة بطريقة مختلفة بمشكلة الله . ان معرفة كون الانسان حراً او غير حر تشمل على معرفة ما اذا كان له سيد . واللاجدوى المتعلقة بهذه المشكلة تنبثق من ان الفكرة ذاتها التي تجعل مشكلة الحرية ممكنة تسلبها في الوقت نفسه من كل معناها . لأنه بوجود الله لا تكون هنالك مشكلة الحرية بقدر ظهور مشكلة الشر . وانت

تعرف بديل ذلك : فنحن اما ان نكون غير أحرار وان يكون الله القوي القوي مسؤولاً عن الشر ، او ان نكون أحراراً ومسؤولين ، ولكن الله ليس قوياً قوياً . ولم تضاف براعة وحجج الباحثين شيئاً جديداً ، كما انها لم تنقص شيئاً من حدة هذا التناقض .

ولهذا السبب لا يمكنني ان أحرار في تعظيم ، او تعريف ، فكرة تختفي وتفقد معناها حالما تخرج عن اطار الاشارة الى تجربتي الفردية . انني لا أستطيع ان أفهم اي نوع من الحرية يمكنني ان أحصل عليه من كائن أسمى ، فلم أعد أميز بين الطبقات . والمفهوم الوحيد الذي أستطيع ان أحصل عليه للحرية هو مفهوم السجين او الفرد وسط الدولة . والحرية الوحيدة التي أعرفها هي حرية التفكير والفعالية . فاذا ألغت اللاجدوى كل فرصي في الحرية الأبدية ، فانها من الناحية الاخرى تعيد وتنظم حرية فعاليتي . وهذا الحرمان من الأمل والمستقبل يعني زيادة في امكانيات استحصالي الحاضر .

يعيش الانسان العادي ، قبل مواجهته اللاجدوى ، بالغايات ، بالاهتمام بالمستقبل ، او بالتبرير (بصرف النظر عما هو او ماذا) . انه يزن فرصه ، ويؤمل في - يوم ما - ، سواء كان ذلك تقاعده او جهود أبنائه . وهو ما يزال يظن أنه من الممكن توجيه شيء ما في حياته . والحق انه يتصرف وكأنه حر ، حتى لو كانت كل الحقائق تنافض تلك الحرية . ولكن الأمور كلها تنقلب رأساً على عقب بعد اللاجدوى . اما تلك الفكرة ، - انني أكون - وطريقي في التصرف وكأن لكل شيء معنى ، حتى اذا كنت أحياناً أقول انه لا معنى هنالك في كل

شيء ، - فكل ذلك يصبح كاذباً بطريقة مدوخة ، بلا جدوى الموت المتوقع . والتفكير في المستقبل ، اي وضع الغايات ، وتفضيل امور معينة - ذلك كله يفترض مقدماً اعتقاداً بالحرية ، حتى اذا كان المرء في بعض الأحيان يتأكد من أنه لا يشعر بها . بيد انني في تلك اللحظة أدرك جيداً ان الحرية هي أسمى ، الحرية التي ستكون ، والتي تستطيع وحدها ان توفر أساساً لحقيقة ما ، ليست موجودة . الموت ذو الواقع الوحيد . أما بعد الموت ، فالأمر يكون أسوأ . فلست حتى ذلك حراً في ادامة وابقاء نفسي ، وانما أنا عبد ، وفوق اي شيء آخر ، عبد بدون أمل في الثورة الأبدية ، بدون اي لجوء الى الاحتقار . ومن الذي يستطيع ان يبقى عبداً بدون ثورة ، وبدون احتقار ؟ وأية حرية يمكن ان تكون هنالك ، بالمعنى الأتم ، بدون التأكيد على أبعديتها ؟

ولكن الانسان اللامعدي يدرك في الوقت نفسه انه كان حتى الآن مرتبطاً بادعائه ذاك بالحرية . وكان يعيش على وهم ذلك الادعاء . لقد عرقله ذلك من ناحية معينة . وقد كيّف نفسه مع متطلبات غاية معينة يريد تحقيقها ، الى المدى الذي تصور به غايته في الحياة ، وصار عبد حريته . وهكذا فلا يمكنني ان أتصرف بأكثر من كوني الوالد (او المهندس ، او زعيم الأمة او الكاتب في دائرة البريد) الذي أعددت نفسي لكي أكونه . انني أظن انني استطيع ان أختار ان أكون ذلك ، وليس شيئاً آخر . والحق ان ظني هذا يتم بصورة غير مدركة . ولكنني أدمع ادعائي في الوقت نفسه بمتقدمات من هم حولي ، بفرضيات محيطي البشري (فالآخرون متأكدون من كونهم احرارا ، وتلك الحالة المبهجة

تصيب بالمدوى) ! ومهما ظل المرء بعيداً عن أية فرضية ، أخلاقية او اجتماعية ، فانه يتأثر بها جزئياً ، بل انه ، بالنسبة لأفضلها (فهناك فرضيات جيدة واخرى رديئة) وكيف حياته وفقاً لها . وهكذا فان الانسان اللامعدي يدرك أنه لم يكن حراً بالفعل . ولأوضح اكثر ، فأقول انه الى المدى الذي آمل به ، او الذي أقلق به بشأن حقيقة قد تكون نقية بالنسبة لي ، بشأن طريقة في الكينونة او الخلق ، الى المدى الذي أرقب به حياتي وأثبت بذلك انني أقبل ان يكون لها معنى ، فاني أخلق لنفسي حواجز أضع حياتي بينها . انني أميل بالفعل الى عدد كبير من بيروقراطيي الذهن والقلب الذين يملأوني فقط بالاشمئزاز ، والذين كان اثمهم الوحيد ، كما أرى الآن بوضوح ، انهم أخذوا حرية الانسان مأخذاً جاداً .

اللاجدوى تعلمني شيئاً بهذا الخصوص : انه ليس هنالك مستقبل . ومن الآن فصاعداً ، سيكون هذا هو سبب حريق الداخلية . وسأستخدم مقارنتين هنا . ولنبدأ بالتصوفين ، فهم يحدون الحرية بالتخلي عن انفسهم . فبفقدانهم انفسهم في المهم ، وبتقبلهم قواعده ، يصبحون احراراً سرّاً . وهم بالعبودية التي يتقبلونها طوعاً ، يحصلون على استقلال اعظم . ولكن ما الذي تعنيه تلك الحرية ؟ من الممكن ان يقال ، قبل اي شيء آخر ، انهم يشعرون بانهم احرار بالنسبة لأنفسهم ، ولكنهم ليسوا احراراً بمعنى التحرر . والانسان اللامعدي ، كذلك الذي يتجه تماماً الى الموت (الذي اعتبره هنا أشد الامور اللامعدية وضوحاً) يشعر بالانطلاق من كل شيء خارج ذلك الانتباه المنفعل المتركز فيه . انه يتمتع بالحرية بالنسبة للقواعد المألوفة . ويمكننا ان نرى هنا ان الافكار المبدئية

للفلسفة الوجودية تحتفظ بكل قيمتها . والعودة الى الادراك ، اي الخلاص من نوم الحياة اليومية ، تمثل الخطوات الاولى نحو الحرية اللامجدية . ولكن ذلك يشير الى التبشير الوجودي ، بالاضافة الى تلك القفزة الروحية التي يغفلها الادراك أساسياً . وبنفس الطريقة (وهذه هي المفارقة الثانية) ، فان عبيد الماضي لم يكونوا ملك انفسهم . ولكنهم عرفوا تلك الحرية التي تتألف من عدم الشعور بالمسؤولية ^(١) . فان الموت يدين نبيلتين ايضاً ، اذ انها بينما تسحقان ، فانها تهبان الحرية .

ان الحيرة في ذلك اليقين الذي لا قرارة له ، والشعور بعد ذلك بالبعد الكافي عن الحياة بحيث يستطيع المرء ان يزبدها ويراهها بنظرة اوسع - هذا كله يشتمل على مبدأ التحرير . ولمثل هذا الاستقلال الجديد حد زمني معين ، كأية حرية من حريات الفعالية . ولكن هذا لا يمنح صكاً بالابدية ، وإنما يحل محل اوهام الحرية ، التي انقطعت كلها بالموت . ان المصير الحاضر المقدس الذي يتوفر للحكوم بالاعدام الذي تفتح امامه ابواب السجن في فجر مبكر معين ، ذلك الاهتمام الذي لا يصدق بالنسبة لكل شيء ما عدا لهب الحياة الخالص - هنا يتضح ان الموت والتفاهة هما مبادئ الحرية الوحيدة المعقولة : تلك التي يستطيع القلب البشري ان يحريها ويعيشها . وهذه هي النتيجة الثانية . وهكذا

(١) انني معنى هنا بمقارنة الحقائق ، وليس باعتذار الضمة . فالانسان اللامجدي هو عكس الانسان الراضي .

يرى الانسان اللامجدي كوناً ملتهباً خالياً من الشعور ، شفافاً ومحدوداً ، لا شيء فيه ممكن ، ولكن يعطى فيه كل شيء ، ووراءه يكون كل شيء انهيئاً ولا شيئاً . يستطيع حينئذ ان يتقبل مثل هذا الكون ويستمد منه قوته ، ورقضه الامل ، والدليل الراسخ على حياة خالية من التعزية .

* * *

ولكن ماذا تعني الحياة في مثل هذا الكون ؟ لا شيء في الوقت الحاضر ، ولكنها تعني الاكتراث بالنسبة للمستقبل ، والرغبة في استفاد كل ما يعطى . ان الاعتقاد بمعنى الحياة يعني دائماً ميزاناً للقيم ، واختياراً ، وهو يعني تفضيلنا . والاعتقاد بالاجدوى ، طبقاً لتعريفاتنا ، يعلم العكس . ولكن هذا يستحق ان نبهته .

ان معرفة ان الانسان يستطيع او لا يستطيع ان يعيش بدون نقص هو كل ما يعني : انني لا اريد ان اخرج من عمقي . فاذا تم اعطائي هذا المظهر الحياتي ، فهل يستطيع ان أكيف نفسي له ؟ والآن ، فان الاعتقاد بالاجدوى ، بمواجهة هذا الاهتمام الخاص ، هو امر يشبه استبدال عدد التجارب بنوعيتها . فاذا اقمعت نفسي بأنه ليس لهذه الحياة من مظهر آخر غير مظهر الاجدوى ، واذا شعرت بأن توازنها كلها يعتمد على تلك المعارضة الدائمة بين ثورتي المدركة والظلام الذي تصارع فيه ، واذا اقررت بأن حريتي ليس لها اي معنى الا بعلاقتها بالمصير المحدود ، فيجب عليّ ان اقول ان المهم ليس افضل العيش وإنما اشده . وليس

لي ان اتساءل عما اذا كان ذلك عادياً او مشيراً للاشمئزاز ، بديعاً او كريهاً . انني هنا وبصورة نهائية أتخلّى عن احكام القيمة من اجل الاحكام الحقيقية . وعليّ فقط ان استخرج النتائج مما يمكنني ان أراه ، وألا اجازف بما هو فرضي . لأنني اذا فرضت ان العيش بهذه الطريقة ليس امراً مشرفاً ، فان التصرف الصحيح الحقيقي هو الذي سيدفعني الى ذلك الموقف غير المشرف .

أشد الحياة ، الحق ان هذه القاعدة ، بمعناها الواسع ، لا تعني شيئاً . انها تتطلب تعريفاً . ويلوح انها تبدأ بأن فكرة العدد لم يتم بحثها بصورة كافية . ذلك لأنها قد تتطلب حصة كبيرة من التجربة البشرية . وليس لقاعدة الانسان في السلوك ، ولميزان قيمه ، اي معنى الا خلال عدد وتنوع التجارب التي توفر له ان يراكمها . والآن ، فان ظروف الحياة الحديثة تفرض على اغلبية البشر نفس العدد من التجارب ، وبالتالي نفس التجربة العميقة . ثم انه لا بد ان يكون هنالك دائماً اعتباراً لمساهمة الفرد الطوعية ، العنصر - المعطى - فيه . ولكنني لا استطيع ان احكم على ذلك ، ودعني اكرر ان قاعدتي هنا هي ان استمر مع الدليل المباشر . انني ارى ، اذن ، ان الميزة الفردية في نمط مألوف عام من الاخلاق لا تكن في الامة المثالية الخاصة بمبادئه الاساسية ، وانما في جو التجربة الممكن قياسها . ولكي نوسع الامر قليلاً ، نجد أنه قد كان لليونانيين القدماء نمط الكسل والفراغ ، تماماً كما تتعلق اليوم بنمط العمل ثماني ساعات . ولكن اشخاصاً كثيرين بين اولئك الذين تمثل حياتهم أشد المأساة يعملوننا تنبأ بأن تجربة أطول تغير قائمة القيم هذه . انهم يعملوننا تخيل ذلك المغامر في الحياة اليومية الذي يحطم كل الارقام

القياسية خلال عدد التجارب وحسب (انني أتعمد استخدام هذا المصطلح الرياضي) ، وهكذا يفوز بنمط اخلاقيته هو^(١) . ولكن دعنا نتجنب الرومانتيكية ونسأل انفسنا فقط ماذا يمكن ان يعني مثل هذا الموقف بالنسبة لانسان قرر في ذهنه ان يقبل رهانه وان يلاحظ بشدة ما يعتقد انه يمثل قواعد اللعبة ؟

ان تحطيم كل الارقام القياسية هو اولاً ؛ وقبل أي شيء آخر ، مواجهة العالم في اوسع ما يمكن ان يتوفر من المناسبات . فكيف يمكن ان يتم هذا بدون متناقضات ، اللعب بالكلمات ؟ لأن الالجدوى ، من ناحية ، تعلم المرء ان كل التجارب غير مهمة ، كما انها من الناحية الاخرى تحفزه نحو اكبر عدد من التجارب . فكيف لا يفعل المرء كما فعل عدد كبير من اولئك الاشخاص الذين تحدثت عنهم - فيختار شكل الحياة الذي يوفر له اعظم ما يمكن الحصول عليه من تلك المادة البشرية ، وبذلك يأتي بميزان للقيم يدعي المرء من الناحية الاخرى بأنه يرفضه ؟

ثانية ، نجد أن الالجدوى وحياتها المتناقضة هي التي تعلمنا . والخطأ هو الظن بأن عدد التجارب ذاك يعتمد على ظروف حياتنا ، في حين

(١) العدد احياناً يؤلف النوع . واذا كنت سأتقبل آخر ما أعادت وضعه النظرية العلمية فاني سأجد ان المادة كلها تتألف من مراكز للطاقة ، وكثرة او قلة هذه المراكز تجعل خصائص اكثر او أقل بروزاً وأهمية . فبليون من الايونات وايون واحد يختلفان ليس بالعدد وحسب وانما بالنوع ايضاً . ومن السهل نقل ذلك الى نطاق التجربة البشرية .

أنه يعتمد علينا فقط . وعلينا هنا ان نكون مبالغين في التبسيط .
فالعالم يقدم لشخصين يعيشان نفس العدد من السنوات نفس العدد من
التجارب . والامر يتوقف علينا نحن لكي ندركها . ان يقظة المرء لحياته ،
لثورته ، لحرите ، الى أبعد مدى ، هو العيش ، الى أبعد مدى . وحيثما
يتحكم الوضوح لا يكون ميزان القيم مجدياً . دعنا نبسط الامر اكثر .
دعنا نقل ان العقبة الوحيدة ، النقص الوحيد الذي سيد ، يتألف من
الموت قبل الاوان . وهكذا فلا عنى ، ولا عاطفة ، ولا انفعال ، ولا
تضحية يمكن ان تساوي في عيني الانسان اللامعدي (حتى اذا كان يريد
ذلك) بين حياة مدركة تستمر اربعين سنة ، ووضوح ينتشر ليشمل
ستين سنة ^(١) . الجنون والموت هما الامران اللذان لا يستطيع ان يفعل
شيئاً أمامها . والانسان لا يختار . واللاجدوى والحياة الاضافية التي
تتضمنها ، لذلك لا تعتمدان على ارادة الانسان ، وانما على نقيض تلك
الارادة ، أي الموت ^(٢) . واذا نحن وزنا كلمائنا بعناية فاننا لنجد ان
المسألة هي مسألة حظ ^(٣) . وعلى المرء فقط ان يكون قادراً على

(١) نفس التأمل بالنسبة لفكرة مختلفة ، تلك هي فكرة اللاشيئية الابدية . وذلك لا يضيف
شيئاً ولا ينقص شيئاً قط من الواقع . ونجد في التجربة السايكولوجية للاشيئية ان اعتبار ما
سيحدث خلال ألفي سنة هو الذي يحمل للاشيئتنا معنى . واللاشيئية الابدية ، في زاوحد من
مظاهرها ، تتألف بالضبط من مجموع الحياة التي هي ليست حياتنا نحن .
(٢) هذه الارادة هي الوسيط هنا فقط ، وهي تميل الى الاحتفاظ بالادراك . وهي تعطي
ضبطاً للحياة ، وهذا أمر جميل .

(٣) اصطدام السيارة بكامو وموته في مثل هذه السن أمر يضيف صفة التجربة حتى على هذا
الجانب من أفكاره ، الذي تصعب تجربته بدون حدوث الموت اللامعدي . وبذلك يكون قد
جرب كل ما قاله بالفعل . — المترجم .

تقبل هذا . ولن يكون هنالك أي بديل قط لمشرين سنة من الحياة والتجربة .

ادعى اليونانيون القدماء ، مع ما يتجلى في هذا من تعارض في مثل هذا السباق اليقظ ، بأن أولئك الذين ماتوا في شباههم كانوا يتمتعون بحب الآلهة . وهذا حقيقي فقط اذا كنت مستعداً للاعتقاد بأن دخول عالم الآلهة المضحك يعني فقدان أبدع المتع وأشدها نقاء ، اي الشعور ، والشعور على هذه الارض . ان الحاضر ، وتتابع الحاضر ، وتتابع الحاضر أمام النفس المدركة دائماً ، هما المثل الأعلى للانسان الالمجدي . ولكن عبارة - المثل الاعلى - تلوح زائفة في هذا المضمار . الامر لا يتعلق حتى ولا باستعداده الكامن ، وانما بالنتيجة الثالثة من تحليله العقلي . ويعود التأمل في الالجدوى ، بعد ان يكون قد بدأ من لحظة معذبة للابشري ، في النهاية الى قلب ألسنة اللهب المتوقدة في الثورة البشرية (١) .

وهكذا فاني أستنتج من الالجدوى ثلاث نتائج ، وهي ثورتي ، وحرיתי ، وانفعالي . وبواسطة فعالية الادراك فقط أحول الى قاعدة للحياة ما كان سيصبح دعوة للموت - وأنا أرفض الانتحار . انني أعرف ،

(١) ما هم هو التامك . ونحن نبدأ هنا بقبول العالم . ولكن التفكير الشرقي يبشر بأن المرء يستطيع ان يستمر في نفس الجهود المنطقي بالاختيار ضد العالم . وهذا هو أمر مشروع ، وهو عب البعث حجميته وحدوده . بيد انه حين يتم تتبع نقي العالم بنفس القوة فان المرء يحقق (بالنسبة لبعض المدارس الخاصة بالفلسفات الهندوسية الفيدي) نتائج مماثلة فيما يخص لاكثر الامال ، مثلاً . ونجد أن جان غرنيه يؤمن في كتابه الهام - الاختيار - فلسفة صحيحة - للاكثرات -

حقاً ، الذبذبة الكثيبة التي تتردد في هذه الأيام . ولكن لديّ كلمة أريد ان أقولها : انها ضرورية . فحين يكتب نيتشه : - يلوح بوضوح ان الشيء الرئيسي في السماء وعلى الارض هو الاطاعة دائماً وفي اتجاه واحد : فبعد أمد طويل سينتج شيء يستحق من أجله ان تعاش الحياة على هذه الارض ، شيء مثل الفضيلة ، او الفن او الموسيقى او الرقص او العقل او الذهن - شيء يحول الاشكال ، شيء رقيق ، مجنون ، او مقدس ، - فانه يشير بوضوح الى قاعدة أخلاقية بارزة متميزة حقاً . ولكنه يشير ايضاً الى طريق الانسان اللامعدي . فاطاعة اللهب هي في الوقت نفسه أسهل وأصعب شيء يمكن عمله . وعلى كل حال فمن الخير للانسان ان يحكم على نفسه بين حين وآخر . وهو وحيد في استطاعته ان يفعل ذلك .

ويقول ألان - ان الصلات تكون حين يهبط الليل على الفكر - . ولكن الذهن يجب ان يواجه الليل - وهذا القول الأخير هو جواب المتصوفين والوجوديين . أجل ، حقاً ، ولكن ليس ذلك الليل الذي يولد تحت الأجفان المغفلة وخلال ارادة الانسان فقط - الليل المظلم الموحش الذي يستدعيه الذهن ليغوص فيه . فاذا كان واجباً على الذهن ان يواجه ليلاً ، فليكن ليل اليأس الذي يظل واضحاً - الليل القطبي ، يقظة الذهن ، الذي يبرز فيه بعد ذلك السطوع الابيض العذري الذي يرسم الخطوط لكل موضوعي على ضوء الادراك . وعند تلك الدرجة يواجه التساوي فهماً منفعلاً متحمساً . ولا تعود المسألة بعد ذلك مسألة الحكم على القفزة الوجودية . وانما تستعيد مكانها وسط مختلف ألوان المواقف البشرية القديمة . لأنه اذا كان المشاهد مدركاً ، فان تلك القفزة

ستظل تلوح له لاجدية . وبقدر ما تظن القفزة انها تحل التعارض ،
فانها تعيده الى حدثه . وهنا يكون كل شيء محتملاً . وهنا يستعيد
كل شيء مكانه ويولد العالم الالهي من جديد بكل روعته واختلافه .

واكن التوقف أمر سيء ، وكذلك فمن الصعب الاكتفاء بطريقة
واحدة في الرؤية ، والاستمرار بدون التعارض ، ولعل التعارض هو
أدق القوى الروحية . وما سبق يعرف فقط طريقة في التفكير . بيد
ان المسألة هي ان يعيش المرء .



الانسان والاله مجري

« اذا آمن ستافروجين فهو لا يظن انه يؤمن .
واذا لم يؤمن فهو لا يظن انه لا يؤمن . »

— المآخوذون — لدوستوفسكي

قال غوته « اختصاصي هو الزمن » . وهذا هو حقاً الكلام اللامجدى .
ترى ما هو الانسان اللامجدى ؟ انه من لا يفعل شيئاً بالنسبة للأبدية ،
رغم أنه لا ينفىها . وليس هذا لأن الحنين غريب عنه ، ولكنه يفضل
شجاعته وتعليه العقلي . فشجاعته تعلمه ان يعيش بدون نقض ، وان
يحتمل ما لديه ، وأما تعليه العقلي فانه يخبره بمحدوده . ووثوقه من
حريته المحدودة مؤقتاً وفراغ مستقبله ، وادراكه الفاني ، فانه يعيش
مغامرته ضمن فترة حياته . هذا هو حقه . وهذه هي فعاليتها التي يحتملها
من أي حكم عليها غير حكمه هو . فحياة أعظم لا يمكن ان تعني
بالنسبة له حياة أخرى . لأن هذا يكون امراً غير عادل . ولست
أتحدث هنا حق ولا عن تلك الأبدية التافهة التي تسمى الاجيال القادمة .
لقد اعتمدت مدام رولان على نفسها ، وتم تلقين ذلك الاندفاع الالهوي
درساً . وصار يسعد الاجيال ان تقتطف عبارتها ولكنها نسيت كيف

تحكم عليها . وهكذا فان مدام رولان لا تكترث بالاجيال القادمة .

ولا يمكن ان تكون هنالك مسألة التقدم الأخلاقي . لقد رأيت أنا سأ يتصرفون تصرفاً سيئاً وهم يحملون اخلاقية عظيمة . وانني ألاحظ في كل يوم ان الأمانة لا تحتاج الى اية قواعد أو قوانين . هنالك شريعة اخلاقية واحدة فقط يمكن أن يقبلها الانسان اللامجدي ، تلك التي لا تنفصل عن الله : تلك المفروضة فرضاً . ولكن يحدث انه يعيش خارج ذلك الله . اما بالنسبة للاخلاقيات الأخرى (أعني اللااخلاقية أيضاً) ، فالانسان اللامجدي لا يرى فيها شيئاً غير التبريرات وليس لديه ما يبرره . انني أبدأ هنا من مبدأ براءته .

هذه البراءة تخيف . ان ايفان كارامازوف يقول باستغراب : « كل شيء مسموح » . وهذا ينطق باللاجدوى أيضاً ، بشرط ألا نأخذ ذلك بالمعنى العادي . ولست أعرف هل تمت الإشارة بصررة كافية الى ان ذلك ليس انطلاقاً للانعاش أو الغبطة ، وانما هو اعتراف مرير بحقيقة . ثم ان اليقين من اله يهب الحياة معنى أمر يفوق بكثير في جاذبيته القدرة على التصرف تصرفاً سيئاً بصحبة الأمان من العواقب . ولن يكون الاختيار بين هذين الأمرين صعباً . ولكن ليس هنالك اختيار ، وهذا الجانب المرير . ان اللاجدوى لا تحرر وانما هي ترتبط . وهي لا تخول كل الفعاليات . وعبارة « كل شيء مسموح » لا تعني انه لا شيء هنالك ممنوع . وتضفي اللاجدوى تعادلاً على نتائج تلك الفعاليات . انها لا تمتدح الجريمة ، لأن هذا سيكون طفولياً ، ولكنها تميل الى لوم قفاهتها . فاذا كانت التجارب كلها لا مكترثة فان تجربة الواجب

ستكون مشروعة كآية تجريبية اخرى . فالمرء يستطيع ان يكون فاضلا
عبر خرافة .

ترتكز كل انظمة الاخلاق على ان للفعالية نتائج تجعلها مشروعة او
تلفيها . فالذهن المشبع باللاجدوى يحكم فقط بأن تلك النتائج يجب ان
تبحث يهدوء . انه مستعد لدفع الثمن . وبعبارة اخرى ، قد يكون هنالك
اشخاص مسؤولون ، ولكن ليس هنالك مذنبون ، في رأي هذا الذهن .
وفي اقصى الحالات ، يوافق مثل هذا الذهن على استخدام التجربة الماضية
اساساً لفعالياته المستقبلية . الزمن يطيل الزمن ، والحياة تخدم الحياة . وفي
هذا الحقل المحدود ، وكذلك الحمل بالامكانيات ، يلوح للانسان اللاجدي
انه لا يمكن التنبؤ بأي شيء في نفسه ، ما عدا وضوحه . فاية قاعدة
اذن يمكن ان تنبثق من النظام اللامعقول ؟ الحقيقة الوحيدة التي قد يلوح
له انها تعلمه شيئاً هي ليست من الأمور الشكلية . انها تأتي الى الحياة
وتفتتح في البشر . ولا يستطيع الذهن اللاجدي ان يتوقع القواعد
الاخلاقية في نهاية تعليله العقلي كما يتوقع ان يجد التوضيحات وانفاس الحياة
البشرية . والصور القليلة التالية هي من هذا النمط . انها تطيل اللاجدي
باعطائها موقفاً معيناً وكذلك باعطائها حرارتها .

هل احتاج الى تطوير الفكرة القائلة بان المثل ليس بالضرورة مثلاً
يجب اتباعه (واصل من ذلك ان امكن في العالم اللاجدي) وبأن هذه
التوضيحات ليست بالتالي نماذج ؟ بالاضافة الى ان هذا يتطلب استعداداً
معيناً فانه ، مع اعتبار الأمور الاخرى ، يكون المرء مضحكاً حين يستنتج
من روسو ان الانسان يجب ان يسير على اربع ، وحين يستنتج من

نيتشة ان الانسان يجب ان يسيء معاملة امه . وقد كتب كاتب حديث يقول : « انه لامر جوهري ان يكون المرء لا مجدياً ، ولكن ليس من الضروري ان يكون مخدوعاً . » ويمكن للمواقف التي سأتناولها ان تحتفظ لنفسها بمعانيها الكاملة فقط عبر بحث نقائضها . فالكاتب الصغير في دائرة البريد هو بمنزلة الفاتح اذا كان الادراك صفة مشتركة بينهما . وفي هذا المجال تكون التجارب كلها لا مكترثة . وهناك بعض التجارب التي هي اما ان تخدم الانسان او لا تخدمه اذا كان مدركاً . والا فليس لذلك اهمية : لان فشل الانسان يشتمل على حكم ، ليس على الظروف ، وانما على نفسه .

انني اختار فقط الناس الذين لا يهدفون الا الى توسيع انفسهم ، او الذين أرى انهم يقومون بتوسيع انفسهم . وليس لهذا مضامين اخرى . وهنا اريد ان اتحدث فقط عن عالم تكون فيه الافكار كالحياة خالية من المستقبل . فكل ما يجعل الانسان يعمل ويستشار يستفيد من الأمل . والفكر الوحيد الذي هو ليس غير حقيقي هو ففكر عقيم . وفي عالم اللاجدوى تقاس قيمة فكرة ما او حياة ما بعقمها .

الدون جوانيه :

إذا كان كافياً ان يحب المرء ، فان الامور ستكون سهلة جداً . فكلما احب اكثر زادت قوة اللاجدوى . ولا ينتقل دون جوان من امرأة الى اخرى لانه لا يملك الحب . ومن المضحك تصويره متصوفاً يبحث عن الحب الاكمل . ولكن ذلك حقاً لانه يجهن بنفس الانفعال وفي كل مرة بكل نفسه بحيث انه يجب ان يكرر عطاءه وبحته العميق . ولهذا فكل

امرأة تأمل في ان تعطيه ما لم تعطه اياه اية امرأة اخرى . وهن في كل مرة مخططات ، ينجحن فقط في جمعه يشعر بالحاجة الى ذلك التكرار . فتقول واحدة منهن : « واخيراً اعطيتك الحب . » فهل يدهشنا ان يسخر دون جوان من هذا ؟ انه يقول : « اخيراً ؟ كلا ، وانما مرة اخرى . » ترى لماذا يكون ضرورياً ان يحب المرء حباً نادراً ليتوفر له ان يحب كثيراً ؟

* * *

ترى هل ان دون جوان مصاب بالسوداوية ؟ ليس هذا محتملاً . ولئن ألقا الى تفصيل الاسطورة . ولكن تلك الضحكة ، والمعجزة المسيطرة ، والعبث وحب المسرح ، كلها امور واضحة مفبطة . وكل مخلوق مكتمل يميل الى مضاعفة نفسه ، وكذلك هو الامر مع دون جوان . ولكن للسوداويين سببين في ان يكونوا كذلك : هم لا يعرفون ، او انهم يأملون ودون جوان يعرف ، كما انه لا يأمل . وهو يذكر المرء بهؤلاء الفنانين الذين يعرفون حدودهم ولا يتخطونها ابداً ، وفي تلك الفترة الحرجة التي يقفون فيها موقفهم الروحي فجدم يتمتعون بكل السهولة الرائعة التي يتصف بها العظام . وهذا هو النبوغ حقاً : الذكاء الذي يعرف حدوده . ودون جوان لا يعرف السوداوية الى حد الموت الجسدي . وفي اللحظة التي يعرف فيها ذلك ، تندفع ضحكة وتجعل المرء يفتقر كل شيء . لقد كان سوداويًا في اللحظة التي كان يأمل فيها . واليوم ، يجد على شفتي تلك المرأة المذاق المر ، المريح ، للمعرفة الوحيدة . مر ؟ قليلاً جداً . ذلك النقص الضروري الذي يجعل في الامكان ادراك السعادة .

من الزيف ان نحاول ان نرى في دون جوان رجلاً ربي على ابدي رجال الدين . فالأمر الضعيف الوحيد بالنسبة له هو الأمل في حياة اخرى . وهو يثبت ذلك لانه يقامر بتلك الحياة الاخرى ضد السماء نفسها . فالتشوق الى الرغبة التي يقتلها الاشباع ، ومساءلة الرجل العاجز جنسياً ، امور لا تخصه . تلك هي من خصائص فاوست الذي آمن بالله ايماناً كافياً ليجمعه يبيع روحه للشيطان . أما بالنسبة لدون جوان فالأمر أشد بساطة . ان « برلادور » مولينا يرد دائماً على التهديدات بالجمع بقوله : « أية مهلة مطولة تمطيني ! » وما يأتي بعد الموت تأفه ، واي تعاقب طويل للايام لمن يعرف كيف يكون حياً ! لقد تاق فارست الى آلهة الأرض ، ولم يكن على الرجل المسكين الا ان يمد يده . وبلغ به الأمر انه باع روحه في الوقت الذي لم يكن في وسعه ان يسعدها فيه . أما بالنسبة للشبح فان دون جوان بالعكس يصر عليه ، واذا ترك امرأة فان ذلك ليس لانه لم يعد يشتهيها بصورة مطلقة . فلأمره الجميلة مرغوبة دائماً دائماً : ولكنه يشتهي اخرى ، ولكن كلا ، فهذا ليس الشيء نفسه .

تشبع هذه الحياة كل رغبة لديه ، وليس هنالك ما هو أسوأ من فقدانها . وهذا الرجل المجنون هو رجل حكيم عظيم . ولكن الناس الذين يعيشون على الأمل لا يتعرفون في هذا العالم الذي يستسلم فيه المطف للكرم ، والحب للصمت الرجولي ، والمشاركة للشجاعة المتفردة ، ويهرع الجميع الى القول بأنه « كان ضعيفاً ، مثالياً ، او قديساً . » على المرء ان يقلل من شأن العظمة المهيمنة .

* * *

والناس تسينهم بصورة كافية (او تلك الابتسامة ، ابتسامة المشاركة في الائم ، التي تحط من قيمة ما تعجب به) خطب دون جوان وتلك الملاحظة ذاتها التي يستخدمها مع كل النساء . ولكن أهم الأشياء بالنسبة لمن يبحث عن العدد في مسراته هو اليقين من الثمار ، وما هي فائدة تعقيد كلمات السر التي وثق من نجاحها ؟ فلا أحد يصغي اليها . لا المرأة ولا الرجل . وانما يصغون الى الصوت الذي يتلفظ بها . ان تلك الكلمات هي القاعدة والتقليد والمجاملة ، وبعد ان تقال فلا بد من اتمام الشيء الاشد أهمية . ودون جوان مستعد بالفعل لاتمام ذلك ، فلماذا يخلق لنفسه مشكلة في الأخلاق ؟ انه ليس مثل « مانيار » ميلوتز الذي يجلب على نفسه اللعنة بسبب رغبته في ان يكون قديماً والجحيم بالنسبة له شيء يستثار . ولديه جواب واحد فقط على الغضب المقدس . ذلك هو الشرف الانساني . انه يقول للقائد : « انا شريف ، وانني لأحافظ على عهدي لانني فارس . » ولكن من الخطأ الفاضح ايضاً ان نجعل منه لا اخلاقياً . وهو في هذا الصدد « كأي فرد آخر » ، يملك الشريعة الاخلاقية ، شريعة ما يحب وما يكره . ويمكننا ان نفهم دون جوان فهماً صحيحاً فقط بالاشارة الدائمة الى ما يرمز اليه بصورة عامة : المفسد المعادي ورياضي الجنس . انه حقاً مفسد عادي .^(١) والفرق الوحيد هو انه مدرك ، وهذا هو ما يجعله لا مجدياً . والمفسد الذي صار واضحاً ، لن يتغير بسبب كل ذلك . فالافساد شرطه في الحياة ، ولا يغير المراء الشروط والظروف أو يصبح افضل الا في القمص . ومع ذلك فيمكننا القول بأنه في الوقت

(١). بالمعنى الاكمل ، ومع اخطائه . فالوقوف الصحيح يشتمل على الاخطاء ايضاً .

نفسه لا يتغير شيء قط ، ويتحول كل شيء . وما يدركه دون جوان في الفعالية هو اخلاقية العدد ، في حين ان القديس ، بالعكس ، يميل نحو النوع . وعدم الايمان بالمعنى العميق للاشياء امر من خصائص الانسان اللامجدي . أما بالنسبة لتلك الوجوه الودية ، او التي يرسم عليها المعجب فانه ينظر اليها ، ويخزنها ، ولا يتوقف عندها . والزمن يجاريه . فالانسان اللامجدي هو الانسان الذي لا ينفصل عن الزمن . ودون جوان لا يفكر في « جمع » النساء ، وانما يستنفد عددهن ويستنفد معهن فرصة في الحياة . « فالجمع » يسمو الى منزلة القدرة على عيش الماضي . ولكنه يرفض الاسف ذلك الشكل الاخر من اشكال الأمل . انه لا يستطيع ان ينظر الى الصور .

* * *

هل هو اثنائي بسبب كل ذلك ؟ ربما يكون كذلك ، بطريقة . ولكن من الضروري هنا ايضاً ان نتفاهم . فهناك اولئك الذين وجدوا ليعيشوا واولئك الذين وجدوا ليجبوا . وسيكون دون جوان ميالاً الى قول ذلك على الاقل . ولكنه سيفعل ذلك بكلمات قليلة جداً لا يستطيع ان يختار اكثر منها . لان الحب الذي نتحدث عنه . هنا يتلبس بلبوس اوهام الابدية . وكما يعلمنا اختصاصيو العاطفة كلهم ، فليس هنالك حب أبدي ، الا الحب المعرقل . وليست هنالك اية عاطفة بدون صراع . ومثل هذا الحب ينتهي فقط بالتناقض النهائي ، الموت . فأما ان يكون المرء فارغ او لا شيء . وهنا ايضاً ، توجد طرق عديدة للانتحار ، واحداها التخلي الكامل عن الذات وانكارها . ويعرف دون جوان ، كما يعرف اي فرد

آخر ، ان هذا يمكن ان يكون مثيراً . ولكنه واحد من القلائل الذين يعرفون ان هذا هو ليس الشيء المهم . وهو يعرف ايضاً ان اولئك الذين يدبرون ظهورهم للحياة الشخصية عبر حب عظيم ربما يزيدون من غنى أنفسهم ، ولكنهم بالتأكيد يفقدون اولئك الذين اختارهم حبهم . فللأم او الزوجة العاطفية قلب مغلق بالضرورة ، لانه مبتعد عن العالم . عاطفة واحدة ، ومخلوق واحد ، ووجه واحد ، ولكن ذلك كله مستنفذ وما يشغل دون جوان هو حب مختلف تماماً ، وهذا الحب هو التحرير . انه يجلب معه كل الوجوه في العالم ، وينبثق ارتعاش هذا الحب من معرفته انه فان . لقد اختار دون جوان ان يكون لا شيئاً .

فالامر بالنسبة له هو ان يرى بوضوح . ونحن نعني بالحب ما يربطنا بمخلوقات معينة فقط بالاسارة الى طريقة جماعية في الرؤية ، والكتب والاساطير هي المسؤولة عن تلك الطريقة . أما عن الحب فلست اعرف غير ذلك المزيج من الرغبة والانعطاف والذكاء الذي يربطني بهذا المخلوق أو ذاك . وهذا المزيج يختلف بالنسبة لشخص آخر . ولست املك الحق في ان اعطي تلك التجارب كلها بنفس الاسم . وهذا ايضاً يستثني المرء من خوض تلك التجارب بنفس الحركات . وهنا ايضاً ، يضاعف الانسان اللامعدي ما لا يستطيع ان يوحد . وهكذا فهو يكتشف طريقة جديدة في الكينونة تحرره على الأقل كما تحرر اولئك الذين يقتربون منه . وليس هنالك حب نبيل الا ذلك الذي يدرك نفسه باعتباره قصير العمر ، واستثنائياً . وكل ذلك الموت ، والعودة الى الحياة ، مجتمعة فيما يشبه الحزمة ، تؤلف ازدهار الحياة بالنسبة لدون جوان . انها طريقته في العطاء

والاحياء . وأدع تقرير ما اذا كان المرء يستطيع ، او لا يستطيع ان يتحدث عن الانية .

* * *

وهنا افكر في كل اولئك الذين يصرون بصورة مطلقة على ان دون جوان يجب ان يعاقب . ليس فقط في الحياة الاخرى ، وانما في هذه الحياة بالذات . انني افكر في كل تلك الحكايات والاساطير وضحكات السخرية من دون جوان حين يكون عجوزاً . ولكن دون جوان مستعد بالفعل . فليس تقدم السن وما يعنيه تقدم السن بالنسبة للرجل المدرك بالأمر المدهش . بل انه مدرك لانه لا يخفي رعب ذلك وما يشتمل عليه عن نفسه . لقد كان في اثنينا معبد مخصص للشيخوخة . وكان الأطفال يؤخذون اليه . أما بالنسبة لدون جوان ، فكلما زادت سخرية الناس منه زاد بروز شخصه . وهو بذلك ينبذ الشخصية التي اضافها عليه الرومانتيكيون . فلا أحد يريد ان يسخر من ذلك الدون جوان المعبود الذي يثير العطف . انه يحظى بالراء ، فهل ستنتفعه السماء نفسها ؟ ولكن ذلك ليس المسألة . ففي الكون الذي يلحبه دون جوان نجد ان السخرية هي ضمن ذلك الكون أيضاً . وسوف يعتبر توجيه اللوم اليه امراً طبيعياً فتلك هي قاعدة اللعبة . بل ان من خصائص نبه انه تقبل كل قواعد اللعبة . ومع ذلك فهو يعرف انه على حق وانه ليس هنالك مجال لمعاقبته فالمصير ليس عقوبة .

تلك هي جريمته ، وكمن السهل ان نفهم لماذا يريد رجال الله ان

يوقعوا العقاب عليه . انه يحقق معرفة بدون اوهام ، وهذه المعرفة تنفي كل ما ييشرون به . فالحب والتملك ، والفلبة والاستنفاد - تلك هي طريقته في المعرفة . (وهنالك مغزى في تلك الكلمة الانجيلية التي تسمى الفعل الشهواني « معرفة » .) انه ألد أعدائهم ، الى درجة انه يحملهم . ويورد مؤرخ أن بورلادر الحميقي مات مقتولاً بيد القسس الذين أرادوا « أن يضعوا حداً لافراط والحاد دون جوان الذي جعله مولده يوقن بالايان » ثم اعلنوا ان الله قد صمقه ولم يثبت احد تلك النهاية الغريبة . كالم يثبت أحد عكس ذلك . ولكنني استطيع ، بدون ان أتساءل عن امكانية ذلك ان اقول انه منطقي . واريد هنا فقط ان اتناول كلمة « مولد » وان أتلاعب بالكلمات : فقد كانت حقيقة العيش هي التي جعلته يؤكد براءته . ومن الموت فقط استوحى الذنب الذي صار اسطورياً الآن .

ترى ماذا يعني ذلك القائد الصخري اكثر من هذا ؟ ذلك التمثال البارد الذي انطلق يتحرك ليعاقب الدم والشجاعة اللذين تجرءا على التفكير؟ كل قوى العقل الأبدي ، والنظام ، والاخلاقية العامة ، والعظمة الغريبة المتمثلة في الله القادر على الغضب ، كل تلك الامور تتجلى فيه . ان تلك الصخرة الضخمة التي لا روح لها ، ترمز الى القوى التي نفاها دون جوان الى الابد . ولكن مهمة القائد تقف عند ذلك الحد . ويستطيع الرعد والبرق ان يعودا الى السماء الاصطناعية التي استدعيا منها . وتحدث المأساة الحقيقية بصورة منفصلة عنها . كلا ، فلم يواجه دون جوان موته بسبب يد صخرية . انني اميل الى الاعتقاد بالشجاعة الاسطورية ، بذلك الضحك المجنون الذي يصدر عن الانسان الصحيح فيثير به الها غير موجود .

ولكنني قبل اي شيء آخر ، اعتقد ان القائد لم يأت في تلك الليلة التي كان دون جوان ينتظر فيها عند انا ، وانه بعد منتصف الليل لا بد ان يكون الملحد قد شعر بالمرارة المرعبة ، مرارة اولئك الذين كانوا على حق بل انني لا تقبل وصف حياته الذي قد يقول عنه انه دفن نفسه في النهاية في احد الاديار . وليس ذلك لان الجانب الاصلاحى من القصة يمكن ان يكون محتملا ، اذ لية حاية راع يطلبها من الله ؟ وانما يرمز هذا الى النتيجة المنطقية من حياة مشبعة تماماً باللاجدوى ، والنهاية العابسة لوجود منصرف الى المباهج قصيرة العمر . وينتهي الاستمتاع الحسى الى الزهد . ومن الضروري ان ندرك انها ربما يكونان مظهرين للحرمان نفسه . واية صورة رهيبة يمكننا ان نرسم أسوأ من صورة الرجل الذي يخونه جسده ، الرجل الذي لانه لم يمت في حينه ، يمشى المهزلة بينما هو ينتظر النهاية ، وجهاً لوجه مع ذلك الله الذي لا يعبده ، يخدمه كما خدم الحياة ، يركع امام الفراغ ، ويمد يده الى سماء بلا تعبير ، يعرف ايضاً انها بلا عمق ؟

انني أرى دون جوان في زلزلة احد تلك الاديار الاسبانية الضائعة بين التلال . واذا كان يفكر ويتأمل بأي شيء على الاطلاق فانه لا يتأمل في أشباح غرامياته الماضية ، وانما ، ربما عبر شق ضيق في الجدار الذي تلفحه الشمس بجرارتها ، في سهل اسباني صامت ، في ارض نبيلة لا روح يرى فيها نفسه . ومع ذلك فيجب ان تنسدل الستارة على هذه الصورة السوداء المتألقة . أما النهاية الاخيرة ، المنتظرة ولكن غير المرغوبة ، تلك النهاية الاخيرة ، تستحق الاحتقار .

* * *

يقول هاملت : « انها المسرحية » ، وبها سأقبض على دخيلة الملك . و « اقبض » هي الكلمة حقاً ، لأن الدخيلة تتحرك بسرعة او تنسحب الى داخل الذات . ويجب القبض عليها وهي طائرة ، في تلك اللحظة التي لا يمكن الشعور بها الا بصورة ضعيفة ، والتي تنظر فيها الدخيلة الى نفسها نظرة خاطفة . والانسان العادي لا يستمتع بالتباطؤ ، وانما ، بالعكس ، يسرع به كل شيء الى الأمام . ولكن ، في الوقت نفسه ، لا يعجبه شيء مثل نفسه ، خاصة امكانياته . ومن هنا ينبع اهتمامه بالمسرح ، بالعرض ، حيث تقدم اليه مصائر عديدة ، وحيث يستطيع ان يتقبل الشعر ، دون ان يتقبل الاسى . وهنالك ، على الأقل . يمكن ادراك الانسان اللامفكر ، وهو يستمر في هروعه الى هذا الأمل او ذاك . ويبدأ الانسان اللامجدي حين ينتهي ذاك ، حين يكف الذهن عن الاعجاب بالمسرحية ، ويدخل فيها . والدخول في كل اشكال الحياة تلك ، وتجربتها بكل تنوعها ، يسمو الى منزلة القيام بها جميعا . ولست أقول هنا ان الممثلين بصورة عامة يطيعون ذلك الدافع ، وانهم اناس لا مجدون ، وانما ان مصيرهم هو مصير لا مجدي قد يفتن ويسحر قلبا واضعاً . ومن الضروري فهم هذا لكي نفهم ما يلي ، بدون ان نخطيء في شيء .

ان منطقة الممثل هي منطقة الحدوث الخاطف ومن المعروف ان شهرته هي أقصر أنواع الشهرة . هذا هو على الأقل ما يقال في الحديث . ولكن كل انواع الشهرة قصيرة العمر . ومن وجهة نظر سيروس ، ستكون جميع مؤلفات غوته منسية خلال عشرة آلاف سنة ، وسينسى اسمه ايضاً .

ولعل حفنة من رجال الآثار سيبحثون عن الادلة على وجود فترتنا . وقد كانت تلك الفكرة دائماً تحتوي على درس . اذ اننا اذا تأملنا فيها تأملاً جاداً ، نجدها تهبط بمشاغلنا الى مستوى النبـل العميق الذي يتجلى في اللاإكـثـرات . وهي ، فوق أي شيء آخر ، توجه اهتماماتنا نحو ما هو أكيد - أي نحو المباشر . ونجد بين كل انواع الشهرة ان اقلها خداعاً هي الشهرة التي تعاش .

ولهذا فان الممثل اختار الشهرة المضاعفة ، الشهرة المقدسة ، المختبرة . وهو يستنتج من كون كل الامور ستموت يوماً ما نتيجة هي افضل النتائج . والممثل ينجح او لا ينجح . ونجد ان للكاتب شيئاً من الامل حتى اذا لم ينل الاعجاب ، فهو يفترض ان مؤلفاته ستشهد على ما كان عليه هو نفسه . أما الممثل فهو ، على افضله ، يترك لنا صورة فوتوغرافية ولا شيء عما كان عليه هو نفسه ، حركاته ، وسكناته ، لهائه او احتدامه بالحب ، يمكن أن يصل الينا . وبالنسبة اليه ، الا يعرفه أحد يعني انه لا يمثل ، وألا يمثل يعني الموت مائة مرة مع كل المخلوقات التي كان يمكن ان يأتي بها الى الحياة او يعيدها الى الحياة .

* * *

فلماذا يدهشنا ان نرى شهرة خاطفة تبنى على أشد المخلوقات قصراً في عمرها ؟ لدى الممثل ثلاث ساعات فقط ليكون فيها أياكو أو السيبت أو بيدرو أو غلوستر . وهو في تلك الفترة القصيرة من الزمن يحملهم

يأتون الى الحياة ويموتون على خمسين ياردة مربعة من الألواح . فلم يسبق ان صورت الالاجدوى بمثل هذه القوة وهذا التفصيل . فأبي ايجاز موح اكثر من هذا يمكننا ان نتصور ؟ أفضل من هذه الحياة العجيبة ، تلك المصائر الاستثنائية النهائية التي تتكشف خلال بضع ساعات ضمن النطاق المسرحي ؟ ان سيجيسموندو لا يعني شيئاً خارج المسرح ، وبعد ساعتين ، يراه المرء وهو يتعشى في المدينة ، وبعد ذلك فلربما كانت الحياة حلاً . ولكن يأتي آخر بعد سيجيسموندو ، ويحل البطل الذي يعاني من الشك محل الرجل المذبح طلباً للانتقام . وهكذا ، بالانتقال الخاطف عبر القرون والاذهان ، وبتقليد الانسان كما يمكن ان يكون وكما هو ، يكون للممثل اشتراك اكثر مع ذلك الفرد الالاجدي ، مع المسافر . فهو مثله يستنفد شيئاً ، وينتقل دائماً . انه المسافر في الزمن ، وهو على افضله المسافر الذي تتمعبه الارواح . واذا اتيح لاخلاقية العدد ان تجد لها برهاناً على الاطلاق فان ذلك يكون على ذلك المسرح العجيب . ومن الصعب بيان الدرجة التي يستفيد بها الممثل من الشخصيات ، ولكن هذا ليس الامر المهم . انه امر يتوقف على مدى معرفته للدرجة التي يجد بها شياً بينه وبين تلك الاعمار التي لا يمكن تعويضها . وغالباً ما يحدث انه يحملها معه ، وانها تفيض الى ابعد من الزمان والمكان اللذين ولدت فيها . انها ترافق الممثل الذي لا يستطيع ان يفصل نفسه بسرعة من الاشياء التي كانها . ويحدث له في بعض الاحيان انه حين يمد يده ليتناول قده ، يستمر في اداء الحركات التي مد بها هاملت يده الى القدرح ليرفعه الى شفتيه . كلا ، ان المسافة التي تفصله عن الخلوقات التي ترفض الحياة ليست كبيرة . بل انه ايعبر جداً ، في كل يوم ، عن تلك الحقيقة الموحية القائلة بأنه ليس هنالك حد فاصل بين ما يريد الانسان ان يكونه وبين ما هو عليه .

وهو باهتمامه الدائم بالتمثيل الأفضل ، يوضح الى اي مدى يخلق الظهور الكينونة . لأن ذلك هو فنه - ان يتظاهر بصورة مطلقة ، وان يبرز نفسه بالعمق الممكن في اشكال الحياة التي هي ليست ملكه . وفي نهاية مجهوده هذا تتضح مهنته : ان يكيف نفسه بكل مشاعره ليكون لا شيئاً ، او ليكون متعددأ . وكلما ازداد ضيق الحدود المخصصة له لخلق شخصيته ازدادت اهمية موهبته . سيموت خلال ثلاث ساعات تحت القناع الذي اتخذه لنفسه اليوم . وخلال تلك الساعات الثلاث عليه ان يجرب ويعبر عن حياة استثنائية كاملة . ويسمى هذا فقدان الذات لايجاد ذات اخرى . وهو في تلك الساعات الثلاث يسافر عبر ذلك المدى الكامل الذي يستغرق الانسان الجالس بين المتفرجين حياة كاملة ليقطعه .

* * *

والمثل بكونه مقلداً لما هو قصير العمر ، يدرب نفسه تدريباً كاملاً على المظاهر فقط . والتقليد المسرحي يقول بأن القلب يعبر عن نفسه فقط عبر الحركات ، وبالجسد - او عبر الصوت ، الذي هو من الروح بقدر كونه من الجسد . وتصر قاعدة ذلك الفن على ان كل شيء يجب ان يضخم ويترجم الى الجسد . فاذا كانت من الضروري ان يجب المرء على المسرح كما يجب الناس حقاً ، وان يستخدم صوت القلب الذي لا يمكن تعويضه ، وان ينظر كما يتأمل الناس في الحياة ، فان كلامنا سيكون بالرموز . ولكن الصمت يجب ان يجعل نفسه مسموعاً هننا . والحب يتحدث بصوت أشد ، وحقى الاحركة والجود يصبحان رائعي

البروز . ويكون الجسم ملكاً . ولا يستطيع كل واحد ان يكون « مسرحياً » ، وهذه الكلمة المحملة بلؤم غير عادل تشتمل على جمالية كاملة واخلاقية كاملة . يضع نصف عمر الانسان في ما يريد ان يعبر عنه ، وفي النكوص ، والصمت . والفنان هنا هو المتطفل . فالممثل يقضي على السحر الذي كان يقيد تلك الروح لتستطيع العواطف اخيراً ان تنطلق على مسرحها . انها تتحدث في كل حركة ، وهي تعيش فقط عبر الصيحات والنداءات . وهكذا يخلق الممثل شخصه ليعرضها . انه يخططها ، او ينحتها ، ويتلبس بلبوس شكلها المتصور ، ويصب دمه في اشباحها . انني أتحدث عن الدراما العظيمة بالطبع ، النوع الذي يهب الممثل الفرصة ليحقق مصيره الجسدي تماماً . خذ شكسبير مثلاً . ففي تلك الدراما الدافعة نجد العواطف الجسدية تقود الرقص فتوضح كل شيء . وبدونها ينهار كل شيء ، ولن يتاح للملك لير ان يفي بموعده مع الجنون بدون الاشارة الوحشية التي تنفي كورديليا وتعدم ايدكار . فتكشف تلك المأساة شيئاً فشيئاً يبدأ منذ ذلك الحين بالوقوع تحت سيطرة الجنون . ويتم التخلي عن الأرواح للشياطين واحتفالها . وليس هنالك أقل من اربعة مجانين : واحد بسبب المهنة ، والثاني بالنية ، ويأتي بعد ذلك اثنان بسبب العذاب - اربعة اجسام مضطربة ، اربعة مظاهر لا يمكن النطق بها ، لحالة واحدة .

بل ان ميزان الجسم البشري نفسه غير مناسب . فالقناع والحذاء العالي والمكياج الذي يقلص الوجه ويركزه في عناصره الاساسية ، والملابس التي تبالغ او تبسط - ذلك الكون يضحي بكل شيء من اجل المظهر ، وهو معد للعين فقط . وبواسطة معجزة لا مجدية ، فان الجسد

نفسه يأتي بالمعرفة ايضاً . فلست أفهم اياكو ما لم أَلعب دوره . فليس يكفيني ان اسمعه ، لأنني أفهمه فقط حين أراه . والمثل من الشخصية الالاجدية ، بالتالي ، الرتابة ، ذلك الظل المتفرد الصافع الذي هو غريب ، ومألوف ، معاً ، والذي يحمله من بطل الى آخر . وهنا ايضاً يسام العمل الدراماتيكي العظيم في وحدة النغمة هذه ^(١) . وهنا ايضاً يناقض الممثل نفسه : هو نفسه ، ومع ذلك فهو هذا التنوع وهذا التعدد من الارواح المحتممة في جسد واحد . ومع ذلك فانه التناقض الالاجدي ذاته ، ذلك الفرد الذي يريد ان يحقق كل شيء ويعيش كل شيء ، تلك المحاولة التي لا نفع فيها ، وذلك الاستمرار المصّر الذي لا نتيجة له . ومع ذلك فما يناقض نفسه يتحد فيه . انه في النقطة التي يحادد فيها الجسد الذهن حيث يتجه الذهن المتعب من اندحاراته الى أشد حلفائه اخلاصاً له . ويقول هاملت : « مباركون هم أولئك الذي يمتزج دمهم ورأيهم بحيث لا يكونون بوقاً يعزف عليه القدر باصابعه ما يريد . »

* * *

(١) أفكر الآن بوليسير وبطله « السيت » . فكل شيء بسيط ، وواضح ، وخشن . فالسيت مقابل فيلينت ، وسيلمين مقابل اليانت ، والموضوع بأكمله في نتيجة لاجدية خاصة بطبيعة موجبة نحو تطرفها ، والشعر نفسه ، « الشعر الرديء » الذي يندر ان نجده مشدداً ، تماماً كرتابة طبيعة الشخصية .

ترى كيف لم "تحرّم الكنيسة مثل هذه الامور التي يقوم بها الممثل ؟
لقد حرّمت في ذلك الفن تضاعف الأرواح المهرطق ، والدعارة العاطفية
وافتراضات الذهن الذي يعترض على عيش حياة واحدة ويندفع نحو كل
اشكال الافراط . وحرمت ايضاً تفضيل الحاضر وانتصار بروتوس ،
وهذان أمران ينبغيان كل ما تبشر به . فالابدية ليست لعبة . والذهن
الذي يبلغ به الحق ان يقبل الكوميديا بدلاً من الابدية يكون قد فقد
خلاصه . وليس هنالك حل وسط بين « كل مكان » وبين « الى الابد » .
ولهذا فان مثل هذا الادعاء المحمل بكل ذلك اللؤم يمكن ان يثير صراعاً
روحياً هائلاً . لقد قال نيتشه : « المهم ليس الحياة الابدية ، وانما الغبطة
الحية الابدية . » والحقيقة ان كل أشكال الدراما تدور على هذا الاختيار .

كانت ادرين ليكوفريز مستعدة وهي على فراش الموت للاعتراف
وتقبل الدعاء ، ولكنها رفضت ان تنبذ مهنتها . وهكذا فقد خسرت
فائدة الاعتراف . ألم يكن هذا ، في نتيجة ، اختياراً لعاطفتها الشديدة .
بدلاً من اختيارها لله ؟ ولقد أعطت تلك المرأة وهي تتعذب على فراش
الموت ، دامعة العينين ، برفضها ان تنبذ ما سمته فيها ، الدليل على عظمة
لم تحققها أبداً خلف الاضواء . كان هذا أبداع أدوارها وأشدّها صعوبة .
فالاختيار بين السماء والامانة المضحكة ، وتفضيل الذات على الابدية أو
فقدان الذات في الله يمثل المأساة العريقة التي يجب على كل واحد أن
يلعب دوره فيها .

كان يمثلو الفترة يعرفون انهم كانوا مستبعدين من شفاعاة الكنيسة .

فقد كان دخول تلك المهنة يشبه اختيار الجحيم . وقد اكتشفت الكنيسة فيهم أسوأ أعدائها . ويحتج بعض الرجال قائلين : « ماذا ؟ حرمان مولير من الطقوس الاخيرة ؟ » ولكن ذلك كان عدلاً ، خاصة بالنسبة لرجل مات على المسرح وانتهى تحت أصباغ الممثل من حياة كانت مكرسة كلها للثشت . وفي حالته يمكننا ان نستخدم نبوغه مبرراً . ولكن النبوغ لا يبرر شيئاً ، فقط لانه يرفض ان يفعل ذلك .

كان الممثل يعرف في ذلك الحين أي عقاب ينتظره . ولكن أي مغزى هنالك يمكن ان يكون لمثل تلك التهديدات الغامضة أمام مغزى العقاب النهائي الذي تدخره له الحياة ذاتها ؟ كان ذلك هو العقاب الذي شعر به مقدما وتقبله كلياً . وبالنسبة للممثل ، كما هو الأمر بالنسبة للانسان اللامعدي ، لا يمكن تعويض الخسارة الكامنة في الموت قبل الاوان . لا شيء يمكن ان يعوض عن مجموع الوجوه والعصور التي كان يمكن أن يراها لولا ذلك الموت . ولكن المرء يجب ان يموت مهما كلف الأمر . لان الممثل هو حقاً في كل مكان ، بيد ان الزمن يدفعه الى الامام ايضاً ويترك فيه آثاره .

لا يتطلب الامر الا شيئاً من التخيل لنعرف ماذا يعنيه مصير الممثل . فهو يصنع شخصياته ويعددها في الزمن . وهو يتعلم ان يتحكم فيها في الزمن ايضاً . وكلما زاد عدد الاعمار المختلفة التي يكون قد عاشها ، زاد بعداً عنها . ويأتي وقت يجب عليه فيه أن يموت بالنسبة للمسرح وبالنسبة للعالم . ويواجه ما كان قد عاشه . وهو يرى بوضوح ، ويشعر

بالنوعية المقلقة التي لا يمكن تغييرها ، والتي تتصف بها تلك المفامرة .
انه يعرف ، وهو يستطيع أن يموت الآن . وهنالك بيوت للمثلين
المسنين .

الغلبة

يقول الفاتح : « كلا ، لا تفترض انه بسبب حيي للفعالية يكون
عليّ أن أنسى كيف أفكر . بالعكس ، استطيع تماماً أن أعرف ما
أؤمن به ، لانني أفكر به بثبات وأراء بوضوح و يقين . احذر اولئك الذين
يقولون : - انني اعرف ذلك كل المعرفة ، الى درجة انني لا أستطيع
أن أعبء عنه . - لانهم اذا لم يكونوا قادرين على ذلك فهذا يرجع الى
انهم لا يعرفونه ، أو لأنهم وقفوا خارج السطح بسبب من كسلهم » .

« ليس لدي عدد من الآراء . ففي نهاية الحياة يرى الرجل انه قد
انفق سنوات ليتأكد من حقيقة واحدة . ولكن الحقيقة الواحدة ، اذا
كانت واضحة ، تكفي لتوجه وجوداً . أما بالنسبة لي ، فلدي بالفعل
ما أريد أن أقوله عن الفرد . يجب على المرء ان يتحدث عنه بالحق ،
واذا احتاج الامر ، فبالاحتقار المناسب .

« ان الانسان هو انسان خلال الأشياء التي يحتفظ بها لنفسه اكثر
من كونه انساناً خلال الاشياء التي يقولها . وهنالك اشياء كثيرة سأحتفظ
بها لنفسي . ولكنني اؤمن بثبات بأن كل اولئك الذين اصدروا رأيهم

عن الفرد قد فعلوا ذلك بناء على تجربة أقل من التجربة التي نستند عليها نحن في رأينا . لقد لاحظ الذكاء ، ربما الذكاء المثير ، وقتلأ بما هو ضروري للملاحظة . ولكن الفترة ، وخرائبها ، ودمها قدحرتا بالحقائق . لقد كان ممكناً للشعوب القديمة ، حتى الشعوب الحديثة الى حد عصرنا ، عصر الآلهة ، ان توازن بين فضائل المجتمع والفرد ، وان تحاول ان تعرف أيا يخدم الآخر . ولنبدأ بالقول بان ذلك ممكناً بفضل ذلك الضلال المتحكم في قلب الانسان ، القائل بان الكائنات البشرية مخلوقة لتخدم او تُخدَم . ثم ان ذلك كان ممكناً لأنه لم يكن المجتمع ولا الفرد قد تكشفوا عن قابليتهما بعد ، .

« لقد رأيت أذهاناً لامعة تعبر عن الدهشة من اللوحات العظيمة للرسامين الهولنديين الذين ولدوا في ذروة الحروب التي حدثت في الفلاندر، وتستغرب من الصلوات التي كان يقوم بها المتصوفون السيليزيون الذين ربوا خلال حرب الثلاثين المرعبة . القيم الأبدية تعيش بعد الاضطرابات الدنيوية امام اعينهم المدهشة . ولكن كان هنالك تقدم منذ ذلك الحين. فرسامو اليوم محرومون من ذلك الوقاء . وحتى اذا كان لهم اساساً القلب الذي يحتاج اليه الخالق - اعني القلب المغلق - فذلك امر لا ينفع، لأن الجميع ، حتى القديس ، قد شملته الحركة . ولعل هذا هو ما شمرت به بعمق . ففي كل شكل تضيق معامله في الخنادق ، وفي كل مظهر او تشبيه او صلاة مما يسحقه الفولاذ ، تحسر الأبدية جولة . ولما كنت ادرك انني لا استطيع ان اقف بعيداً عن زمني ، فقد قررت ان اكون جزءاً لا يتجزأ منه . وهذا هو السبب في انني اقدر الفرد فقط لأنني اراه مضحكاً مهائناً . ولما كنت اعرف انه ليست هنالك قضايا منتصرة،

فانني اميل الى القضايا الحاسمة . انها تحتاج الى روح لم تصبها العدوى ،
تقف نحو اندحارها مثل موقفها نحو انتصاراتها المؤقتة . فكل من يشعر
بانه مرتبط مع مصير العالم يرى في تصادم الحضارات امراً معذباً .
وقد جعلت ذلك العذاب عذابي في الوقت نفسه الذي اردت فيه ان
اشترك فيه . وفي اختياري بين التاريخ والابدية ، اخترت التاريخ لأنني
اميل الى ما هو يقين . فانا ، على الأقل ، موقن منه ، وكيف استطيع
ان انكر هذه القوة التي تسحقني ؟

« يحدث دائماً ان يجد المرء نفسه مضطراً الى الاختيار بين التأمل
والفعالية . ويسمى هذا « الصيرورة رجلاً » ومثل هذه الامور مرعبة ،
ولكن ليس امام القلب الفخور اي حل وسط . هنالك الله والزمن ،
ذلك الصليب او هذا السيف . لا شيء هنالك حقيقي غير تلك المشاكل
والمتاعب . وعلى المرء ان يعيش مع الزمن ويموت معه ، او يجب عليه
ان يتعاشاه ويتجاهله من أجل حياة اعظم . وانني اعرف ان المرء
يستطيع ان يجد تسوية فيعيش مع العالم بينما يؤمن بالابدية . وهذا يسمى
القبول . ولكنني اكره هذه التسمية وأريد كل شيء ، او لا اريد شيئاً .
فاذا اخترت الفعالية فلا تظن ان التأمل بالنسبة لي هو كالبلد الاجنبي
الذي لا اعرف عنه شيئاً . ولكن ذلك لا يمكن ان يمنحني كل شيء ،
ولما كنت محروماً من الابدية ، فانني اريد ان اتحالف مع الزمن . ولست
اريد ان أضيف الى حساي الحنين القامض او المرارة ، وانا ، فقط ،
اريد ان ارى بوضوح . اقول لك انك غداً ستندفع متحركاً . وهذا
هو بالنسبة لك ، ولي ، تحرير . فالفرد لا يستطيع ان يفعل اي شيء ،
ومع ذلك فهو يستطيع ان يفعل كل شيء . وفي تلك الحالة الرائعة

اللامرتبطة يمكنك ان تفهم لماذا اقدس واسحقه في الوقت نفسه . العالم هو الذي يسحقه سحقاً ، وانا الذي أحرره . وانا الذي اعطيه حقوقه .

* * *

« والفاتحون يعرفون ان الثعالبية هي بحد ذاتها غير نافعة . هنالك فعل مفيد واحد فقط ، وهو اعادة خلق الانسان والارض . ولن أعيد خلق البشر . ولكن المرء يجب ان يفعل (وكأنه) . لأن طريق النضال يقود الى الجسد . وحتى اذا كان مهاناً ، هذا الجسد ، فانه يقيني الوحيد واستطيع ان أعيش عليه فقط . والخلق هو موطني . ولهذا السبب اخترت هذا المجهود الالاجدي ، الذي لا نتيجة له . ولهذا السبب أقف بجانب الصراع ، فالفترة تهب نفسها لهذا ، كما قلت . كانت عظمة الفاتح حتى الآن جغرافية ، وكانت تقاس بمدى الاقطار المفتوحة . وهنالك سبب جعل تلك الكلمة تتغير في معناها ولم تعد تعني الجنرال المنتصر . لقد غيرت العظمة معسكرها . انها تكن في الاحتجاج والتضحية في الزقاق المسدود . وهنا ايضاً لا يكون الامر تفضيلاً للاندحار ، لأن النصر مرغوب ، ولكن هنالك نصراً واحداً فقط ، وهو أبدي . ذلك هو النصر الذي لن يكون لي قط . وهنا أتعثر وأتثبت . فالثورة دائمة التحقق ضد الآلهة ، مبتدئة بثورة برومسيوس ، اول الفاتحين الحديثين . انها مطالب الانسان ضد مصيره ، اما مطالب الفقراء فليست غير معاذير . بيد انني استطيع ان اقبض على تلك الروح بفعاليتها التاريخية فقط ، وذلك هو مجال اتصالي بها . ولكن لا تفترض

انني أجد لذة في ذلك : فبعكس التناقض الاساسي ، احافظ على تناقضي البشري . انني اثبت وضوحى وسط ما ينبغىه . واقدس الانسان امام ما يسعقه ، ثم تأتي حريقى وثورتي وعاطفتي معاً في ذلك التوتر ، ذلك الوضوح ، وذلك التكرار الواسع .

« أجل ، الانسان هو نهاية نفسه . وهو نهايته الوحيدة . فاذا هدف الى ان يكون شيئاً ، فان ذلك يكون في هذه الحياة . وانا اعرف ذلك اكثر مما ينبغى . فالفاتحون يتحدثون احياناً عن الدحر والغلبة ، ولكنهم يغنون دائماً « التغلب على نفوسهم » . وانت تدرك جيداً ما يعنيه ذلك . فكل انسان يشعر بأنه معادل لإله في لحظات معينة . هذه هي ، على الأقل ، الطريقة التي يتم التعبير بها عن ذلك . ولكن ذلك يتأتى من حقيقة انه شعر شعوراً خاطفاً بعظمة الذهن البشري . والفاتحون هم اولئك الناس ، بين البشر ، الذين يدركون قوتهم بصورة كافية لتجعلهم يوقنون من العيش دائماً فوق تلك الذرى ، مدركين تلك العظمة كل الادراك . انها مسألة حسابية ، اكثر ، او أقل . والفاتحون قادرون على الاكثر ، ولكنهم لا يقدرّون على اكثر مما يقدر عليه الانسان نفسه حين يريد . ولهذا فهم لا يغادرون البوتقة البشرية ، منغمسين في روح الثورات الصخابة .

« وهنالك يجدون الخلق مقطع الأوصال ، ولكنهم يواجهون هنالك ايضاً القيم الوحيدة التي يميلون اليها ويعجبون بها ، الانسان وصمته . وهذا هو ما يؤلف خرابهم ويُسرهم معاً . وهنالك ترف واحد لهم -

عرف العلاقات البشرية . فكيف لا يستطيع المرء ان يدرك ان في هذا الكون الضعيف كل ما هو بشري ، وبشري فقط ، يتخذ لنفسه معنى اكثر اشراقاً ؟ الوجوه المتوترة ، والاخاء المهدد ، مثل تلك الصداقة القوية البريئة بين البشر - تلك هي الثروات الحقيقية ، لأنها عابرة . وفي وسطها يكون الذهن على أشد ادراكه لقواه وحدوده . اي لمدى تأثيره . لقد تحدث البعض عن النبوغ . ولكن النبوغ امر يسهل قوله ، انني افضل الذكاء ، اذ يمكن القول بأنه سيكون رائعاً حينئذ . انه يضيء هذه الصحراء ويتحكم فيها . انه يعرف التزاماته ويوضحها . وسيموت مع الجسد ، ولكن معرفته لهذا تؤلف حريته .

* * *

نحن لا نجهل ان كل الكنائس هي ضدنا . والقلب المد هكذا يتجنب الأبدية ، والكنائس كلها ، مقدسة او سياسية ، تدعي بالأبدية ، أما السعادة والشجاعة ، والتعويض عن الآثام او العدالة ، فهي اهداف ثانوية بالنسبة اليها . انها تأتي بعقيدة ، ويحب على المرء ان يساهم فيها باشتراك . ولكنني لا أهتم بالأفكار او بالأبدية . والحقائق التي تدخل ضمن نطاقها يمكن لمسها باليد . ولا يستطيع ان أنفصل عنها . ولهذا السبب فانت لا تستطيع ان تبني اي شيء عليّ ، اذ لا شيء يدوم من الفاتح ، حتى ولا عقائده .

وفي نهاية كل ذلك ، وبالرغم من الاشياء كلها ، يمكن الموت . ونحن

نعرف ايضاً انه ينهي كل شيء . ولهذا السبب ، فان كل تلك المقابر المنتشرة في اوروبا ، والتي تقلق بعضنا ، كرهية . فالتناس يسبقون الجمال على ما يحبونه فقط ، والموت يصدنا ويستنفد صبرنا ، ويجب دحره هو ايضاً . كان كارار الاخير ، السجين في بادوا ، التي أخلاها الطاعون وحاصرها البندقيون ، يركض صارخاً في قاعات قصره المهجور ، كان يدعو الشيطان ويطلب منه الموت . وكانت هذه طريقة من طرق دحره . وهي ايضاً علامة على الشجاعة التي يمتاز بها الغرب لأنه أسبغ القبح على الأماكن التي يظن الموت انه يجد فيها الاكرام . وفي عالم الثائر ، يقدس الموت الظلم ، وهذا هو الاسفاف الأسمى .

« واختار آخرون ، بدون ان يتخلوا عن ايها ، الابدية ، وشجبوا وهم هذا العالم . ومقابرهم تبسم وسط العديد من الأزهار والطيور . وهذا يناسب الفاتح وبهبه صورة واضحة لما كان قد رفضه . لقد اختار ، بالعكس حاجز الحديد الأسود ، أو الحقل الذي يعمل فيه صانع الخزف . وافضل الناس ، بين ناس الله ، يرعهم بين حين وآخر ، رعباً ممزوجاً بالتأمل والعطف ، ان يروا هذه الأذهان التي تستطيع ان تعيش وهي تتصور لنفسها مثل هذا الموت . بيد ان هذه الأذهان تستمد قوتها ومبرراتها من ذلك نفسه . ان مصيرنا يقف أمامنا ونحن نستثيره . وليس هذا بسبب فخراً وكبريائنا بقدر كونه بسبب ادراكنا لوضعيتنا التي لا نتيجة ترجى منها . ونحن ايضاً نشعر في بعض الاحيان بالشفقة على انفسنا . وهذا هو التعاطف الوحيد الذي يلوح لك مقبولاً بالنسبة الينا : الشعور الذي قد لا تفهمه ، ولا يلوح لك ذلك رجولياً . ومع ذلك فان اشجع

الناس بيننا هم اولئك الذين يشعرون به . ولكننا نسمي الواضحين رجالاً
ولا نريد قوة منفصلة عن الوضوح . »

* * *

دعني اكرر ان هذه التصورات لا تفترض اية شرائع اخلاقية ، كما انها
لا تشتمل على أي حكم . انها صور تخطيطية فقط . فالعاشق ، والممثل ،
والمغامر يلعبون دور الالاجدوى . ولكن يستطيع ان يفعل ذلك بنفس
القوة ، إذا شاء ، العفيف ، والموظف ، او رئيس الجمهورية . فيكفيه ان
يعرف ، وألا يضع قناعاً على اي شيء . يعثر المرء في المتاحف الايطالية
احياناً على لوحات عليها رسوم كان القس يستخدمها ليقطي عيني المحكوم
عليه بالاعدام فلا يرى المشنقة . والقفزة بكل اشكالها ، الاندفاع لمقابلة
المقدس او الابدية ، والاستسلام لاهام الحياة اليومية ، او الفكرة — كل
تلك اللوحات تخفي الالاجدوى — ولكن هنالك موظفين بلا لوحات ، وهم
اولئك الذين أريد ان أتحدث عنهم .

لقد اخترت اشدّهم تطرفاً . وفي هذا المستوى تهبهم الالاجدوى قوة
ملكية . صحيح ان هؤلاء الامراء هم بدون مملكة ، ولكنهم يتميزون عن
الآخرين بهذا : انهم يعرفون ان جلال الملوك وهمي . وهم يعرفون ان هذا
هو كل ما يؤلف نبلهم ، وغير مفيد ان نتحدث عن علاقتهم بسوء الحظ
الغامض ، أو رماد الحيبة . فققدان الامل ليس يأساً ، ولهب الأرض يساوي
عطور السماء ، ولا يستطيع أحد ، حق ولا انا ، ان يحكم عليهم هنا . انهم

لا يكافحون ليكونوا افضل ، وانما يحاولون ان يكونوا متأسكين ، فاذا كان ممكناً ان يطلق مصطلح « الرجل الحكيم » على من يعيش على ما يملكه بدون ان يؤمل شيئاً بما لا يملكه ، فهم اذن حكام . وهناك واحد منهم ، وهو فاتح ، ولكن في دنيا الذهن ، ودوت جوان ، ولكن في المعرفة ، وممثل ، ولكن في دنيا الذكاء ، يعرف هذا اكثر من اي شخص آخر : « انت قط لا تستحق امتيازاً في الأرض او السماء لابلاغك درجة الكمال خروفاً الطيب الصغير العزيز ، وانت مع ذلك تستمر في كونك ، على افضلك ، خروفاً صغيراً عزيزاً مضحكاً ، بقرون ، ولا شيء غير ذلك - مفترضين ايضاً انك لا تنفجر بالغرور ولا تثير فضيحة باتخاذك موقف الذي يصدر حكمه . »

وعلى اي حال فقد كان ضرورياً ان نعيد للتعليل اللامجدي امثلة اقرب إلى القلوب . ويستطيع الخيال ان يضيف امثلة اخرى ، غير منفصلة عن الزمن والمنفى ، من اولئك الذين يعرفون ايضاً كيف يعيشون متفقيين مع كون ليس له مستقبل وليس فيه ضعف . وهذا العالم اللامجدي ، الذي لا اله فيه ، مأهول بمن يفكرون بوضوح ، ولم يعودوا يأملون . ولم يتحدث بعد عن أشد الشخصيات لا جدوى ، اي الخالق .





الخلق الله مجري

الفلسفة والرواية

كل تلك الاعمار الحياتية التي تميش في جو الالاجدوى النادر لا يمكن ان تستمر بدون ان يصب فكر عميق ودائم قوته فيها . وهنا بالذات يمكن ان يكون ذلك شعوراً غريباً فقط بالامانة . وقد لاحظ المدركون وهم ينجزون مسؤولياتهم وسط أسخف الحروب دون ان ينظروا الى انفسهم باعتبارها متناقضة . كان هذا لانه كان من الضروري عدم تجنب اي شيء . هناك اذن شرف ميتافيزيكي في احتمال لا جدوى العالم . والغلبة ، والتمثيل ، وتعدد الفراميات ، والثورة الالاجدية ، هي المساهمات التي يقدمها الانسان من اجل كرامته في حملة يكون فيها مدحوراً منذ البداية .

ذلك هو من أمور الامانة تجاه قواعد المعركة . وذلك الفكر قديكون كافياً للابقاء على الذهن ، وقد دعم ، وما يزال يدعم ، حضارات كاملة . فلا يمكن نفي الحرب ، ويجب على المرء ان يعيشها أو يموت بسببها ، وكذلك هو الأمر مع الالاجدوى . انه امر متعلق بنفسها ، بروية عظامها ،

واستعادة الاجساد . وفي هذا الصدد نجد ان القبطه اللامجديه المتنازه هي الخلق . قال نيتشه : « الفن ، ولا شيء غير الفن ، لدينا الفن لكي لا نموت بسبب الحقيقه . »

ومن المؤكد في التجربة التي احاول ان اصفها ، واركز على بعض انماطها ، ان عذاباً جديداً ينبثق كلما مات عذاب آخر . والبحث الطفولي عن النسيان وحب الاشباع هما الآن خاليان من اي صدى . ولكن التوتر الدائم الذي يبقي الانسان وجهاً لوجه مع العالم ، والهديان المنظم الذي يحفزه على ان يكون متمسكاً لكل شيء ، يتركان له حى أخرى . ولهذا فان العمل الفني في هذا العالم هو الفرصه الوحيدة للاحتفاظ بادراك الانسان وتثبيت مفامراته . والخلق هو العيش المضاعف . وان بحث بروس المتلمس في الظلام ، المتلف ، واهتمامه الدقيق يجمع الزهور وورق الزينه ودواعي القلق ، كل تلك الامور لا يمكن ان تعني شيئاً آخر . وفي الوقت نفسه فانها لا تعني اكثر مما يعنيه الخلق المستمر للمفهوم الذي يفرق فيه الممثل والفاتح وكل البشر اللامجدين في كل يوم من ايام حياتهم . فالكل يجربون ايديهم في تقليد وتكرار واعادة خلق الواقع الذي هو واقعهم . ونحن ننتهي دائماً بان يكون لنا مظهر حقائقنا . وكل الوجود بالنسبة للانسان الذي يدير ظهره الى الأبدية هو فقط تقليد هائل تحت قناع الالاجدوى . والخلق هو التقليد العظيم .

ولنبداً بالقول بأن هؤلاء الناس يعرفون ، ثم ينحصر كل مجهودهم في اختبار وتوسيع واغناء الجزيره العابرة التي هبطوا فيها . ولكن عليهم

ان يعرفوا اولاً . لأن الاكتشاف الالاجدي يحدث مع توقف تكون فيه عواطف المستقبل معدة ومبررة . وحق الناس الذين ليس لديهم انجيل يملكون جبل الزيتون . ويجب ألا ينأى المرء على جبلهم ايضاً ، فالامر بالنسبة للانسان الالاجدي ليس تفسيراً ولا حلاً ، وانما هو تجربة ووصف . وكل شيء يبذل بالاكتراث الواضح .

الوصف - هذا هو آخر مطامح الفكر الالاجدي . والعلم ايضاً ، بعد ان وصل الى نهاية تناقضاته ، كف عن التأمل ، ولم يعد يفكر في ، او يضع الخطوط العامة ، لمنظر الظواهر البكر دائماً . وهكذا يتعلم القلب ان العاطفة التي تغبطننا حين نرى مظاهر العالم لا تأتينا من عمق العالم ، وانما من تعدد تلك المظاهر واختلافها . والتفسير لا ينفع ، ولكن الاحساس يبقى ، وتبقى معه ايضاً المفاتيح الدائمة لكون لا ينفد تعدده . ومن الممكن في هذه النقطة فهم مكان العمل الفني .

انه يعني موت التجربة وتضاعفها معاً . انه نوع من التكرار الرتيب ، المحتدم ، للافكار التي عرفها العالم بالفعل : الجسد ، تصور لا ينفد عند قواعد التماثل في المبدأ ، والاشكال والألوان ، والعدد ، او الحزن . وبالنتيجة فانه ليس لاكثر انما ان نواجه ثانية الافكار الرئيسية لهذا البحث في عالم الخالق ، الرائع ، الطفولي . ومن الخطأ ان نرى فيه رمزاً وان نظن ان العمل الفني يمكن ان يعتبر اخيراً ملجأً للاجدوى . انه هو نفسه ظاهرة لالاجدية ، ونحن هنا مهتمون بوصفه فقط . وهو لا يوفر خلاصاً من المرض العقلي ، وانما هو احد أعراض ذلك المرض الذي

يمكنه عبر فكر الانسان كله . ولكنه للمرة الاولى يجعل الذهن يخرج خارج نفسه ، ويضعه ضد الازهان الاخرى ، لا لكي يتيه ، وانما ليريه بوضوح المر المسدود الذي دخله الجميع . وفي زمن التعليل الالاجدي يتبع الخلق اللااكترات والاكتشاف ، وهو يعين النقطة التي تنبثق منها العواطف الالاجدية والتي يتوقف فيها التعليل الالاجدي . وانا ابرر مكانه في هذا البحث بهذه الطريقة .

يكفيانا ان نلقي ضوءاً على بعض الافكار المألوفة بالنسبة للخالق والمفكر لكي نجد في العمل الفني كل تناقضات الفكر التي تشتمل عليها الالاجدوى . والحق ان النتائج المتشابهة لا تثبت وجود العلاقة بين الازهان بقدر المتناقضات الموجودة بين تلك الازهان . وكذلك هو الامر مع الفكر والخلق . ولست أحتاج هنا الى ان أقول ان الدافع نفسه يحفز الانسان الى هذين الموقفين . وهنا يحدثان معاً في البداية ، ولكن ، بين كل الافكار التي تبدأ من الالاجدوى ، لم أجد الا القليل مما يبقى معها . وقد استطعت ان اقيس بصورة افضل ، خلال انحرافاتهما ولا أمانتهما ، الجانب الذي يخص الالاجدوى . ويجب علي ان اتساءل بنفس الطريقة : هل ان العمل الفني الالاجدي ممكن ؟

* * *

من المستحيل الاصرار كثيراً على الطبيعة المفروضة في التناقض السابق بين الفن والفلسفة . فاذا اصررت على ان تأخذه بمعنى محدود جداً ، فانه

زائد بالتأكيد . واذا عنيت فقط ان لكل من هذين النظامين جوه الخاص به ، فقد يكون هذا صحيحاً ، ولكنه يظل غامضاً . وكان البحث الوحيد المقبول يكن في التناقض الذي يتم ابرازه بين الفيلسوف المحصور ضمن نظامه والفنان الموضوع امام عمله الفني . ولكن هذا كان يخص شكلاً معيناً من اشكال الفن والفلسفة نعتبره ثانوياً هنا . فلم يتم التخلي عن فكرة كون العمل الفني منفصلاً عن خالقه فقط ، وإنما هي فكرة مزيفة ايضاً . وعلى النقيض من الفنان ، يشار الى ان الفيلسوف لم يخلق مطلقاً عدة انظمة . ولكن هذا يكون صحيحاً فقط طالما ان الفنان لم يعبر فقط عن اكثر من شيء واحد تحت مظاهر مختلفة . والكمال المباشر في الفن والحاجة الى تجده - يصبح هذا فقط عبر فكرة موضوعة سابقاً - لان العمل الفني هو ايضاً بناء ، والجميع يعرفون كم يمكن ان يتصف الخالقون المعظام بالرتابة . والفنان كالفكر ، للسبب ذاته ، يلتزم ويصبح هو نفسه في عمله . وهذا التنافذ بينها يثير أشد المشاكل الجمالية أهمية . واكثر من هذا لا يكون هنالك بالنسبة لمن يقتنع بوحدة هدفية الذهن شيء اكثر سخفاً من هذه التمييزات المرتكزة على الطرق والموضوعات . فليست هنالك حدود بين الانظمة التي يقيمها الانسان نفسه للفهم والحب . انها تتشابه . ويثيرها القلق ذاته .

من الضروري ان نقول هذا كبداية . لانه اذا كان يراد من العمل الفني اللاجمدي ان يكون ممكناً ، فيجب ان يدخل ضمنه الفكر باسط اشكاله . وفي الوقت نفسه يجب الا يكون الفكر واضحاً الا في كونه الذكاء المنظم . ويمكن تفسير التعارض على ضوء الالجدوى . فالعمل الفني يولد من رفض الذكاء ان يعلل المومس تعليلاً عقلياً . وهو يشير الى انتصار

الجسد . والفكر الواضح هو الذي يشيره ، بيد ان ذلك الفكر ، بذلك العمل ذاته ، انما ينفي نفسه . ولن يستسلم للاغراء المتمثل في اضافة معنى اعلى الى ما يوصف ، معنى يعرف انه غير مشروع . والعمل الفني يحسد دراما الذكاء ، ولكنه يثبت هذا بصورة لا مباشرة فقط . والعمل الالاجدي يتطلب فنانا مدركا لهذه التقييدات والحدود وفناً لا يعني فيه الملموس اكثر من نفسه . فلا يمكن ان يكون نهاية ، ومعنى ، وتعزية حياة . فالخلق أو عدم الخلق لا يبدلان شيئاً . والفنان الالاجدي لا يضع لعمله قيمة ، وهو يستطيع ان يشجبه بالفعل في بعض الأحيان . تكفيه الحبشة مثلاً في هذه الحالة ، كما هو الامر مع رامبو .

وفي الوقت نفسه ، يمكننا ان نرى قاعدة جمالية في هذا . فالعمل الفني الحقيقي هو دائماً على الميزان البشري . وهو بالضرورة ذلك الذي يقول « اقل » . وهنالك علاقة معينة بين التجربة الأرضية للفنان ، وبين العمل الذي تنعكس فيه تلك التجربة ، بين فلهم ميستر ونضج غوته . وتكون تلك العلاقة رديئة حين يهدف العمل الى اعطاء التجربة كلها بين دفقي الادب التوضيحي . وتكون تلك العلاقة جيدة حين يكون العمل قطعة من التجربة فقط ، جانباً واحداً من الجوانب المتعددة في الجوهر ، يتركز فيه التألق الداخلي بدون ان يكون محدوداً . ففي الحالة الاولى هنالك افراط وادعاء بالابدية . وفي الحالة الثانية هنالك عمل مثير بسبب تجربة كاملة متضمنة ، يشك في غناها . ومشكلة الفنان الالاجدي هي ان يحصل على هذه المعرفة الحية التي تفوق المعرفة المصنوعة . وفي النهاية ، فان الفنان العظيم في هذا الجو هو قبل اي شيء آخر كائن حي عظيم ، على ان نفهم ان العيش في هذه الحالة هو تجربة بقدر كونه

انعكاساً . وهكذا فان العمل يحسد دراما عقلية . والعمل الالاجدي يوضح نبذ الفكر لكرامته واستسلامه لكونه لا شيء اكثر من الذكاء الذي يصنع المظاهر ويغطي بالصور كل ما لا سبب له . ولو كان العالم واضحاً فان الفن لن يكون موجوداً .

ولست أتحدث هنا عن فنون الشكل أو اللون التي يسود فيها الوصف فقط باعتداله الرائع^(١) . فالتعبير يبدأ حيث ينتهي الفكر . وهؤلاء المراهقون الذين يحملون بعيون فارغة في المعابد والمتاحف - تم التعبير عن فلسفتهم بالحركات . وذلك بالنسبة للانسان الالاجدي أشد تثقيفاً من كل المكتنبات . وذلك ينطبق على الموسيقى ايضاً تحت مظهر آخر . لأنه اذا كان الفن خالياً من المعطيات ، فلا بد انه موسيقى . انه يكون اقرب الى الرياضيات اذا لم يكن قد استعار شيئاً من عطائها السمع . ويلعب الذهن هذه اللعبة مع نفسه طبقاً لقواعد موضوعة خاضعة للقياس وتحدث اللعبة ضمن نطاق ترددات الصوتي الخاص بنا والذي وراءه تتلاقى الترددات في كون لاشري . وليس هنالك احساس أشد نقاء . هذه أمثلة سهلة جداً . والانسان الالاجدي يعتبر هذه التوافقات والاشكال توافقاته واشكاله .

ولكنني اود هنا ان أتحدث عن عمل يظل فيه اغراء التفسير اعظم

(١) من المثير ان نلاحظ ان اشد انواع الرسم ذهنية ، ذلك الذي يحاول ان يقلص الواقع الى عناصره الاساسية ، وليس في النهاية غير غبطة بصرية . فكلما احتفظ به من العالم هو لونه . (ويتضح هذا بصورة خاصة عند ليبييه) .

الجميع ، ويقدم فيه الوم نفسه اوتوماتيكياً ، ويكون فيه الاستنتاج حتمياً تقريباً . وأعني الخلق الروائي . وسوف ابحت امكانية احتفاظ اللاجدوى بنفسها في هذا المجال .

ان يفكر المرء هو قبل اي شيء آخر ان يخلق عالماً (او أن يحدد عالمه الخاص ، الأمر الذي لا يمثل اي اختلاف) . انه بدء من الاختلاف الأساسي الذي يفصل الانسان عن تجربته من اجل ايجاد اساس مشترك عام طبقاً للحنين الغامض الذي يشعر به المرء ، وكون مسوّر بالاسباب او مضاء بالتشابهات ، ولكنه ، على أي حال ، يعطي الفرصة للقضاء على الاختلاف الذي لا يمكن احتماله . والفيلسوف هو خالق ، حق اذا كان هذا الفيلسوف كانط . فليده شخوصه ، ورموزه ، وفعاليته الخفية . ولديه نهايات عقده . وبصورة عكسية ، فان اسبقية القصة على الشعر والمقالة تمثل فقط ، بالرغم من المظاهر ، اسبغاً اعظم للعقلية على الفن . دعنا لا نخطئ في هذا الصدد : انني أتحدث عن الاعظم . ان خصب وأهمية الشكل الفني يقاسان دائماً بالسخف الذي يضمه ذلك الشكل . وعدد الروايات الرديئة يجب ألا يحملنا نفسى قيمة الأفضل . فهذه حقاً تحمل كونها معها . وللرواية منطقها ، وتعليلها العقلي ، وبداهاتها ، والأمور المسلم بها فيها . ولها ايضاً متطلبات وضوحها^(١) .

(١) اذا كفت عن التفكير في ذلك فهذا يفسر اردأ الروايات . بل ان كل واحد يعتبر نفسه قادراً على التفكير ، وهو الى درجة ما ، سواء كان مخطئاً او مصيباً ، يفكر حقاً . وبالعكس ، فالقلائل فقط يمكن ان يتصوروا انفسهم شعراء او فنانيين في الكلمات . ولكن منذ

والتعارض الكلاسيكي الذي كنت أجد أنه لا يجد إلا تبريراً
أقل في هذه الحالة . كان باقياً في الوقت الذي كانت ممكنة فيه فصل
الفلسفة عن موجدتها . واليوم ، حين كف الفكر عن الادعاء بالعمومي ،
وحين أصبح أفضل ما في تاريخه هو اقدمه على الندم والتراجع ، صرنا
نعرف ان النظام الفلسفي ، حين يكون ذا قيمة ، لا يمكن ان يفصل
عن موجدته . وعلم الاخلاق نفسه في احد مظاهره ليس الا اعترافاً
شخصياً طويلاً مشعباً بالتعليل العقلي . وعاد الفكر المجرد في النهاية الى
الارتكاز على الجسد . وكذلك ، فان النشاطات الروائية الخاصة بالجسد
والعواطف صارت تنظم بصورة اكثر قليلاً ، طبقاً لمتطلبات رؤيا معينة
للعالم . وكف الكاتب عن رواية « القصص » وصار يخلق كونه .
والروائيون الممتازون المعظم هم الروائيون الفلاسفة – اي اعداد كتاب
البحوث – فثلاً ، بلزاك ، وساد ، وميلفيل ، وستندال ، ودوستويفسكي ،
وبروست ، ومالرو ، وكافكا ، هذا اذا أردنا ان نذكر القلائل .

والحق ان تفضيلهم الكتابة بالتصورات بدلاً من البحوث المشعبة
بالتعليل العقلي يوحى بفكر معين يشتركون فيه جميعاً ، بعد ان اقتنعوا
بلا فائدة اي مبدأ تفسيري ، وبعد ان وثقوا من الرسالة التنقيفية التي
يضطلع بها المظهر المحسوس . وهم يعتبرون العمل الفني نهاية وبداية .

اللحظة التي ينتصر فيها الفكر على الاسلوب يقتحم الرعاع دنيا القصة . وليس هذا شراً عظيماً كما
يقال ، فالممتازون ينقادون الى الاحاح على انفسهم بطالب كثيرة ، اما الذين يستسلمون فهم لا
يستحقون البقاء .

انه حصاد فلسفة غير معبر عنها ، تفسيرها وتنفيذها . ولكنه يكتمل فقط خلال مضامين تلك الفلسفة . انه يبرر اخيراً المعامل الثابت في الفكرة القديمة القائلة بان قليلاً من الفكر يبعد عن الحياة ، وكثيراً منه يعيد اليها . ولما لم يكن الفكر قادراً على تنقية الواقع فانه يتوقف ليقلده . والرواية التي نبحثها هي الأداة لتلك المعرفة التي هي في وقت واحد معاً نسبية وغير قابلة للنفاذ ، كالحب . وللخلق الروائي من الحب ذلك التساؤل والمعجب الاوليان ، والتأمل والاستغراق الحصبان .

* * *

تلك على الاقل هي المفاتيح التي أراها في البداية . ولكنني رأيتها ايضاً في امراء الفكر الخانع الذين استطعت ان اشهد انتعارهم فيما بعد . ما يعني ، حقاً ، هو المعرفة والوصف ، معرفة ووصف القوة التي تقودهم ، في طريق الوم العام . وستساعدني الطريقة ذاتها هنا ايضاً . وسيساعدني ايضاً انني استخدمتها بالفعل في جملي بحثي هذا قصيراً وفي تلخيصه بدون ابطاء في مثال خاص . اريد ان اعرف هل ان المرء يستطيع ، بقبوله حياة لا تنشق فيها ، ان يوافق على ان يعمل ويخلق دون ان يجد في ذلك تنوفاً ، وما هي الطريقة التي تؤدي الى هذه الحريات . اريد ان احرر كوني من اشباحه وأجعله مأهولاً بحقائق الجسد والدم فقط ، تلك الحقائق التي لا يستطيع انكارها . يستطيع ان أقوم بعمل لا يجد ، واختار الموقف الخلاق بدلاً من اي موقف آخر . ولكن الموقف اللاجدي ، اذا كان سيظل كذلك ، يجب ان يبقى

مدركاً للأسببيته . وكذلك هو الامر مع العمل الفنى ، لانه اذا لم يتم احترام وصايا الالجدوى واذا لم يعبر العمل عن الانفصال والثورة ، واذا ضحى للاوهام وأثار الامل ، فانه يكف عن كونه لاسببياً . ولن يكون في وسمى ان افصل نفسي عنه بعد ذلك . وقد تجد حياتي معنى فيه ولكن ذلك ناقه . ولن يكون ذلك ممارسة للانفصال والعاطفة ، تلك الممارسة التي تتوج روعة وتفاهة حياة الانسان .

وفي الخلق الذي يكون فيه اغراء التفسير اقوى ، هل يكون في وسع المرء ان يتغلب على ذلك الاغراء ؟ وفي العالم الروائي الذي يكون فيه ادراك العالم الواقعي على أشده ، هل يستطيع ان اظل وفياً للالجدوى بدون ان اضحي بها من اجل الرغبة في اصدار الحكم ؟ اسئلة كثيرة يجب بحثها في مجهود أخير نهائي . ويجب ان يكون قد اتضح الآن ماذا تعنيه تلك الأسئلة . انها آخر شكوك ادراك يخشى ان يتخلى عن عظته الأولية الصعبة من اجل وهم نهائي . وما يعتبر خلقاً ، يتم النظر اليه باعتباره أحد المواقف الممكنة بالنسبة للانسان الذي يدرك الالجدوى ، يعتبر ايضاً كل أساليب الحياة المفتوحة امام هذا الانسان . فالفاتح او الممثل ، والخالق او دون جوان ، قد يفسون ان ممارستهم العيش لا يمكن ان تستغني عن ادراكهم لصفة العيش المجنونة ، لان المرء يتمود بسرعة . فالانسان يريد ان يكسب مالاً ليكون سعيداً ، فينفق كل جهوده ويكرس افضل جوانب حياته من اجل كسب ذلك المال . ويتم نسيان السعادة ، ويتم اعتبار الوسيلة هي الغاية . وكذلك فان كل جهود هذا الفاتح ستتحول نحو الطموح ، الذي كان طريقاً نحو حياة افضل . ودون جوان بدوره يستسلم لهذا المصير ، ويحصل على الاشباع من ذلك

الوجود الذي لا قيمة لنبله الا عبر الثورة . فبالنسبة للاول ، ادراك ،
وبالنسبة للآخر ، ثورة ، وفي الحالتين تكون الالاجدوى قد اختفت .
هنالك الكثير من الآمال العنيدة في القلب البشري ، وغالباً ما ينتهي
اشد الناس حرماناً وضياًعاً بتقبل وهم ما . وتلك الموافقة التي تحفز
اليها الحاجة الى السلام تعادل داخلياً الموافقة الوجودية . هنالك اذن
آلهة للضياء ، وأصنام للطين . ولكن من الضروري ايجاد الممر الوسط
الذي يؤدي الى وجوه الانسان .

الى هنا تعلمنا من فشل الحاح الالاجدوى اشياء كثيرة عن ماهية
الالاجدوى . وينفس الطريقة ، اذا كنا سنتعلم شيئاً ، فانه ليكفي ان
نلاحظ ان الخلق الروائي يمكن ان يبرز نفس الغموض الذي تبرزه بعض
الفلسفات . وهنا نستطيع ان اختار قوضيحاً لذلك عملاً يتألف من كل
ما يشير الى ادراك الالاجدوى ، والبداية المتجلية ، والجو الواضح .
وسترشدنا نتائج ذلك . واذا لم تكن الالاجدوى محترمة فيه ، فسنعرف
كيف يدخله الوهم . يكفيننا اذن مثل معين ، فكرة ما ، أمانة خالق .
وهذا يتضمن التحليل ذاته الذي كنت قد فصلته حتى الآن .

سأفحص فكرة من أفكار دوستوفسكي المفضلة . وكان في وسعي
ان أدرس أعمالاً أخرى^(١) ، ولكن المشكلة متناولة في هذا العمل بصورة

(١) أعمال مالرو ، مثلاً . ولكن كان سيكون ضرورياً في الوقت نفسه تناول المسألة
الاجتماعية التي لا يمكن للفكر الالاجدي ان يتجنبها (حتى اذا كان ذلك الفكر يقدم عدة حلول
يختلف كل منها عن الآخر) . وعلى كل حال فيجب ان يضع المرء لنفسه حدوداً .

مباشرة ، من حيث النبيل والعاطفة ، كما هو الامر مع الفلسفات الوجودية التي بحثت في أمرها . وهذا التوازي يخدم غرضي .

كبريلوف

يسأل كل ابطال دوستوفسكي انفسهم عن معنى الحياة . وهم في هذا حديثو الطراز : هم لا يخشون السخرية . وما يميز الحساسية الحديثة عن الحساسية الكلاسيكية هو ان الأخيرة تسمن على حساب المشاكل الاخلاقية بينما تفتني الاولى من المشاكل الميتافيزيكية . والمشكلة مبسوطة في روايات دوستوفسكي بتركيز لا يمكن ان يستدعي إلا الحلول المتطرفة . فاما ان يكون الوجود وهماً أو انه ابدى . واذا كان دوستوفسكي مقتنعاً بهذا التساؤل فانه سيكون فيلسوفاً . ولكنه يوضح النتائج التي تخلفها تلك الهوايات العقلية في حياة الانسان ، ولذلك فانه فنان . وبين تلك النتائج يتركز اهتمامه بصورة خاصة في النتيجة الأخيرة ، التي يسميها هو الانتحار المنطقي في كتابه « مذكرات كاتب » . وهو يتصور في القطع التي كتبها في كانون الاول ١٨٧٦ تعليلاً عقلياً « للانتحار المنطقي » . ولما كان مقتنعاً بان الوجود البشري هو لا جدوى تامة بالنسبة لمن لا يؤمن بالخلود ، فان اليأس ينتهي الى النتائج التالية :

« لما كان يقال لي ، جواباً على اسئلي عن السعادة ، عبر وساطة ادراكي ، انني لا استطيع ان اكون سعيداً إلا خلال التوافق مع الكل العظيم ، الذي لا استطيع ان اتصوره ، ولن يكون في وسعي يوماً ان

اتصوره ، فانه لمن الواضح .. »

« ولما كنت اتخذ ، نهائياً ، وبهذا الصدد ، دور المدعي والمدعى عليه معاً ، دور المتهم والقاضي ، ولما كنت اعتبر هذه المهزلة التي اعدتها الطبيعة حقاً بائناً ، ولما كنت اعتبر استسلامي للدور وقيامي به مهيناً .. »

« بناء على صلاحيتي التي لا يحادل فيها أحد ، باعتباري للمدعى عليه القاضي والمتهم ، فاني احكم على تلك الطبيعة ، التي جاءت بي بكل قحة الى الكينونة لكي أعاني ، واتعذب - احكم عليها بالاعدام معي . »

لا يبقى في تلك الوضعية إلا هزل قليل . فهذا المنتحر يقتل نفسه لانه مكتئب متضايق على المستوى الميتافيزيكي . انه ينتقم ، بمعنى من المعاني وهذه هي طريقته في اثبات انه « لن يتم الظفر به » . ومن المعروف ، على كل حال ، ان الفكرة نفسها متضمنة في كيريلوف ، في « الأخوين » ، ولكن بتعميم اروع ، فكيريلوف هو ايضاً من دعاة الانتحار المنطقي . يقول كيريلوف المهندس في مكان ما انه يريد ان يأخذ حياته لانها « هي فكرته » . ومن الواضح ان الكلمة يجب ان تؤخذ بمعناها المقول . انه يستعد للموت بسبب فكرة ، او فكر . وهذا هو الانتحار السامي . ونتقدم اكثر ، عبر سلسلة من المشاهد التي يشع فيها ضوء اكثر على قناع كيريلوف ، ويتضح لنا التفكير القاتل الذي يحفره . والحق ان المهندس يعود الى افكار « المذكرات » . انه يشعر بان الله ضروري وانه يجب ان يكون موجوداً . ولكنه يعرف انه لا يوجد ، وانه لا يمكن ويجب الا يوجد . وهو يستغرب : « لماذا لا تدرك ان هذا يكفي ليكون سبباً

يحمل المرء يقتل نفسه ؟ » ويتضمن هذا الموقف بالنسبة له ، كذلك ، بعض نتائج الالاجدوى . فهو يسمح ، عبر اللااكتراث ، باستخدام انتحاره لمصلحة قضية يحقرها . « قررت امس انني لا اكترث . » واخيراً فهو يعد فعلته بشعور مزدوج من الثورة والحرية . « سأقتل نفسي لاعلن عن لاختضوعي ، حريقي الجديدة المرعبة » . لم يعد الأمر متعلقاً بالثأر ، وإنما بالثورة . ولهذا فان كيريلوف شخصية لاجدية ، — ومع ذلك ، فهذا الشرط الاساسي : انه يقتل نفسه . ولكنه هو نفسه يوضح هذا التناقض : وهو يفعل ذلك بحيث انه يكشف عن السر الالاجدي بكل نقائه . وهو في الحقيقة يضيف الى منطق القاتل طموحاً استثنائياً يجب الشخصية حجمها الكامل : انه يريد ان يقتل نفسه ليكون الها .

والتعليل العقلي هنا هو كلاسيكي في وضوحه . فاذا لم يوجد الله ، فان كيريلوف هو الله . واذا لم يوجد الله ، فان كيريلوف يجب ان يقتل نفسه . يجب على كيريلوف اذن ان يقتل نفسه ليصبح الها . وهذا المنطق لا مجرد ، ولكنه هو المنطق المطلوب . والشئ المثير ، على كل حال ، هو اعطاء معنى الى تلك القدسية المحلوبة الى الارض . ويسمو الى منزلة توضيح الفرضية القائلة بانه : « اذا كان الله غير موجود ، فانا الله » التي تظل حتى الآن غامضة . ومن المهم ان نلاحظ منذ البداية ان الانسان الذي يلقي بذلك الادعاء المجنون هو من هذا العالم حقاً . انه يقوم بتمريناته الرياضية كل صباح ليحافظ على صحته ، ويثيره اغتباط شاقوف باستعادة زوجته ، ويتم العثور بعد موته على ورقة كان يريد ان يرسم عليها وجهاً يخرج لسانه « عليهم » . انه طفولي ومتفعل ، وعاطفي ، وقيامي ، وحساس . وليس لديه من السوبرمان غير المنطق والانشغال

الفكري ، بينما له من الانسان الكاالوج بأكمله . ومع ذلك فانه هو الذي يتحدث بهدوء عن قدسيته . انه ليس مجنوناً ، وإلا فان دوستويفسكي هو المجنون . فان ما يثيره وهماً من اوهام مرض جنون العظمة . واخذ الكلمات بمعناها الخاص سيكون هنا مضحكاً .

ولكن كيريلوف نفسه يساعدنا على ان نفهمه . فهو في جواب على سؤال ستافروجين يوضح انه لا يتحدث عن انسان - الهى . وقد يظن ان هذا ينبثق من اهتمامه بتمييز نفسه عن المسيح ، ولكن الامر هو في الحقيقة الحاق للمسيح به . فكيريلوف يتصور للحظة ان المسيح عند موته لم يجد نفسه في الجنة . واكتشف بعد ذلك ان عذابه كان بلا ثمرة . ويقول المهندس : « ان قوانين الطبيعة جعلت المسيح يعيش وسط الزيف ويموت من اجل زيف » . والحق ان المسيح يصور هنا الدراما البشرية كلها . انه الانسان الكامل ، لأنه الذي ادرك أشد الوضعيات لاجدوى . فهو ليس الانسان الالهى ، وانما هو الله الانسان . ونحن مثله ، يمكن لكل منا ان يصلب ويكون ضحية - بل نحن كذلك الى حد ما .

فالقديسة موضوع البحث هي قديسة أرضية اذن . اذ يقول كيريلوف : « بحثت عن صفة قدسيتي ثلاث سنوات وعثرت عليها . ان صفة قدسيتي هي الاستقلال » . ويمكننا هنا ان نرى معنى فرضية كيريلوف : « اذا لم يكن الله موجوداً ، فانا الله » . فان يصبح المرء الهاً ، هو أمر لا يعدو كونه حراً في هذه الارض ، لا أن يخدم كائناً خالداً . وهو قبل أي شيء آخر ، استنتاج لكل البديهيّات من ذلك الاستقلال المؤلم . فاذا كان

الله موجوداً ، فكل شيء يعتمد عليه ، ولا يمكننا ان نفعل شيئاً امام ارادته . واذا لم يكن موجوداً ، فكل شيء يعتمد علينا . وبالنسبة لكيريلوف ، كما هو الامر بالنسبة لنيثشه ، يكون قتل الله في ان يكون المرء نفسه الهاً ، وان يدرك في هذه الارض الحياة الابدية التي يتحدث عنها الانجيل^(١) .

بيد انه اذا كانت هذه الجريمة الميتافيزيكية كافية لتحقيق الانسان ، فلماذا يضيف الانتحار ؟ لماذا يقتل الانسان نفسه ويغادر هذا العالم بعد ان يكون قد حقق حريته ؟ هذا هو تناقض . وكيريلوف يدرك ذلك جيداً ، لانه يضيف : « اذا شعرت بذلك ، فأنت قبصر » وبدلاً من ان تقتل نفسك ، فانك ستعيش ملفعاً بالجد . ولكن الناس عامة لا يعرفون ذلك . انهم لا يشعرون بذلك . فهم تماماً كما كلوا في زمن برومبوس يحتفظون بأمال معينة عياء^(٢) . انهم يحتاجون الى من يدهم على الطريق ، ولا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً بدون الارشاد والوعظ . ولهذا فان كيريلوف يجب ان يقتل نفسه لانه يحب البشرية . يجب ان يُري اخوانه مجزأ ملكياً صعباً يسير فيه هو قبلهم . انه انتحار توجيحي . وهكذا فكيريلوف يضحى بنفسه . بيد انه اذا كان سيصلب ، فانه لن يذهب ضحية . انه يظل الله الانسان ، مقتنعاً بموت بلا مستقبل ،

(١) ستافروجين : « أتؤمن بحياة ابدية في العالم الآخر ؟ » ، كيريلوف : « كلا ، ولكن بالحياة الابدية في هذا العالم » .
(٢) لقد اخترع الانسان الله فقط ليقتل نفسه . هذا هو ملخص تاريخ الكون حتى هذه اللحظة .

مشبهاً بسوداوية انجيلية . انه يقول : « أنا شقي لأنني مضطر الى اعلان حريقي » . ولكنه ما ان يموت ، ويعرف البشر اخيراً ، فسيتمكن هذه الارض قياصرة ، ويضيء فيها المجد الانساني . وتكون اطلاقاً مسدس كيريلوف اشارة الثورة الاخيرة ، وهكذا فليس اليأس هو الذي يدفعه الى الموت ، وانما حبه لجاره من اجله هو . وقبل ان تنتهي بالدماء تلك المغامرة الروحية التي لا يمكن وصفها ، يدلي كيريلوف بملاحظة هي قدم العذاب البشري : « كل شيء حسن » .

فكرة الانتحار هذه عند دوستوفسكي ، اذن ، هي فكرة لاجدية حقاً . دعنا نلاحظ فقط قبل ان نستمر ان كيريلوف يظهر ثانية في شخصيات اخرى تحرك هي نفسها افكاراً لاجدية اخرى . فان ستافروجين وايفان كارامازوف يختبران الحقائق اللاجدية في الحياة العملية . انها اللذان حررهما موت كيريلوف . وهما يحاولان ان يكونا قياصرة ، ويعيش ستافروجين حياة « ساخرة التناقض » ، ونحن نعرف جيداً من أية ناحية . انه يثير الكراهية حوله ، ومع ذلك فان مفتاح الشخصية موجود في رسالته الوداعية : « لم يكن في وسمي ان احتقر اي شيء » . انه قيصر في اللاكثراث . وكذلك ايفان ، برفضه التنازل عن قوى الذهن الملكية . وقد يرد على اولئك الذين هم ، مثل أخيه ، يثبتون بحياتهم انه من الضروري للمرء ان يخضع ويهين نفسه لكي يؤمن ، بقوله ان الوضعية مخجلة . ومفتاحه يتمثل في « كل شيء مسموح » مع اضافة ظل مناسب من السوداوية . وهو ينتهي بالجنون طبعاً ، كنيكيتش الذي هو اشهر مقتالي الله ، ولكن هذه المجازفة جديرة بأن يقوم بها المرء ، وحين يواجه الذهن اللاجدي بمثل هذه النهايات الفادحة ، فان دافعه

الاساسي هو ان يسأل : « ماذا يثبت ذلك ؟ » .

* * *

وهكذا فان القصص ، « كالمذكرات » ، تمنع في بحث مسألة الالاجدوى .
انها تسبغ المنطق على الموت ، والتسامي ، والحرية « المرعبة » ، ومجد
القياصرة ، ويكون كل ذلك بشريا . فكل شيء حسن ، وكل شيء
مسموح ، ولا شيء كريبه - هذه هي احكام لاجدية . ولكن اي
خلق مدهش هذا الذي تلوح لنا فيه مخلوقات النار والجليد هذه مألوفة
بالنسبة الينا . فعالم اللاكثرات ، ذلك العالم المنفعل في صميم قلوبهم ،
لا يلوح لنا غريباً او هائلاً على الاطلاق . اتنا نرى فيه مشاكلنا
ومتاعبنا اليومية . ولعله لم يتفوق على دوستوفسكي كاتب آخر في اعطاء
العالم الالاجدي مثل هذه المفاتن المألوفة الممذبة .

ومع ذلك ، فما هو استنتاجه ؟ مقتطفان اثنان سيكشفان عن
الانعكاس الميتافيزيكي الكامل الذي يؤدي بالكاتب الى إيماءات اخرى .
فحين اثار نقاش ذلك الذي يرتكب الانتحار المنطقي احتجاج النقاد راح
دوستوفسكي في الاجزاء التالية من « المذكرات » يوضح موقفه وينتهي
هكذا : « اذا كان الايمان بالخلود ضرورياً الى هذا الحد بالنسبة للكائن
البشري (انه بدونه يصل الى حد الانتحار) ، فان ذلك يجب ان
يكون اذن الحالة الطبيعية للبشرية . ولما كانت هذه هي الحالة فان
خلود الروح البشرية موجود بلا شك » . ونجد ثانية في الصفحات

الاخيرة من قصته الاخيرة ، في ختام ذلك الصراع الهائل مع الله يسأل بعض الاطفال اليوشا : « كارامازوف ، أصبح ما يقوله الدين من اننا جميعاً سننفض من الموت واننا سنرى بعضنا بعضاً ثانية ؟ » ويجيب اليوشا : « بالتأكيد ، سىرى بعضنا بعضاً ثانية ، وسيخبر بعضنا بعضاً بفبطة بكل ما كان قد حدث . »

وهكذا يندحر كيريلوف ، وستافروجين ، وايفان . وترد قصة « الاخوة كارامازوف » على قصة « المأخوذين » ، وهذه هي نتيجة حقا . وليست حالة اليوشا غامضة غموض حالة الأمير مشكين . فشكين المريض يعيش في حاضر دائم ، مصطبغ بالابتسامات واللااكتراث ، وقد تكون تلك الحالة السعيدة هي الحياة الأبدية التي يتحدث عنها الأمير . أما اليوشا ، فانه ، بالعكس ، يقول : « سنلتقي ثانية » . وليس هنالك بعد هذا اي انتحار او جنون . فما هي فائدة ذلك لكل من يوقن بالخلود وبفبطته ومباهجه ؟ ان الانسان يتخلى عن قدسيته من أجل السعادة . « سيخبر بعضنا بعضاً بفبطة بكل ما كان قد حدث » . وهكذا ايضاً ، فان مسدس كيريلوف انطلق في مكان ما من روسيا ، ولكن العالم ظل يحتفظ بآماله العمياء . ولم يفهم البشر « ذلك » .

وبالنتيجة ، فانه ليس قاصاً لا مجدياً ذلك الذي يتحدث الينا ، وانما هو قاص وجودي . وهنا ايضاً تكون القفزة مؤثرة وهي تهب نبلها الى الفن الذي يلهمها . انها موافقة مثيرة ، تحيط بها الشكوك والالغاز ، غير اكيدة ، وملتهبة الحماسة . لقد كتب دوستوفسكي عن « الاخوة كارامازوف »

قائلاً : « المسألة الاولى التي سألتبعضها في هذا الكتاب هي المسألة ذاتها التي ظلت اعاني منها طيلة حياتي سواء كان ذلك بصورة مدركة او غير مدركة : وجود الله . » ومن الصعب الاعتقاد بان قصة واحدة كانت كافية لتحول عذاب حياة كاملة الى يقين مفتبط . ولقد كتب احد المعلقين قائلاً بحق :^(١) ان دوستوفسكي هو الى جانب ايفان وان فصول التأكيد الايجابي استغرقت ثلاثة اشهر من مجهوداته ، بينما لم يستغرقه ما سماه « الاحاد » غير ثلاثة اسابيع قضاها في حالة من الهياج . وليست هنالك شخصية واحدة بين شخصياته لا تكن الشوكة في جسدها ، أو لا تزيد الامر سوءاً او لا تبحث عن العلاج في التأثر الحسي او الخلود .^(٢) وعلى اي حال ، دعنا نظل في هذا الشك . وهنا نجد عملاً يسمح لنا ، بنقله للاضواء والظلال بطريقة اشد تأثيراً من ضوء النهار ، ان نقبض على صراع الانسان ضد آماله . وحين يصل الخالق الى النهاية فانه يقوم بالاختيار بين شخوصه . ويتيح لنا ذلك التناقض ان نتوصل الى تمييز . وذلك العمل ليس لاجدياً ، وانما هو عمل يتأمل في مشكلة الالجدوى .

وجواب دوستوفسكي هو الخضوع والمهانة ، « الحجل » بالنسبة لستافروجين . وبالعكس ، فان العمل الالجدي لا يقدم جواباً ، وهذا هو كل الفرق . دعنا نلاحظ هذا بعناية في النتيجة : فما يناقض الالجدوى في ذلك العمل ليس صفته المسيحية ، وانما اعلانه عن حياة مستقبلية . فمن

(١) بوريس دي شولتز .

(٢) ملاحظة جيد الفريية النافذة : معظم شخصيات دوستوفسكي متعددة الجوانب .

الممكن الجمع بين اللاجدوى والمسيحية ، وهنالك امثلة عن مسيحيين لا يؤمنون بحياة المستقبل . ومن ناحية العمل الفني ، يجب ان يكون ممكناً لذلك تعريف واحد من اتجاهات التحليل اللامجدي الذي كان ممكناً ان 'يُسْتَبَقَ' في الصفحات الماضية . انه يؤدي الى التأمل والامعان في «لا جدوى الانجيل» . وهو يلقي ضوءاً على هذه الفكرة ، الخصبة بتأثيراتها اللامباشرة ، ان المعتقدات لا تمنع عدم التصديق . بالعكس ، من السهل ان نرى ان مؤلف «المأخوذين» ، الذي يألف هذه المرات ، اتخذ لنفسه في النتيجة طريقاً مختلفة . ومن الممكن حقاً تلخيص الجواب المدهش الذي يقدمه الخالق الى شخصياته ، الذي يقدمه دوستوفسكي الى كيريلوف ، هكذا : الوجود وهمي وأبدي .

الخلق العابر

أفهم في هذه النقطة ، اذن ، أن الأمل أمر لا يمكن تجنبه الى الابد ، وانه يستطيع ان يقلق حق اولئك الذين ارادوا ان يتحرروا منه . وهذا هو اهتمامي بالاعمال التي تم بحثها حتى الآن . استطيع ، على الاقل في دنيا الخلق ، ان اضع قائمة ببعض الاعمال اللامجدية حقاً^(١) . ولكن كل شيء يجب ان تكون له بداية . وموضوع هذا البحث أمانة معينة . فالكنيسة كانت خشنة الى هذا الحد مع المهرطقين لانها حكمت بانه ليس هنالك عدو أسوأ من طفل فاته . ولكن سجل الاعتدات الكنسية واستمرار التيارات المانيكية أديا الى بناء عقيدة عمياء متعصبة اكثر بما

(١) «موني دك» ليلفيل ، مثلا .

أدت الى ذلك كل الصلوات . وينطبق هذا نفسه على اللاجودي ، مع الفارق . فالمرء يدرك اتجاهه باكتشافه المرات التي تشذ عنه وتتيه . وفي نتيجة التعليل العقلي اللاجمدي نفسها ، في أحد المواقف التي يفرضها منطقها ، لا يكون من مسائل اللااكتراث ان نجد الأمل يعود ثانية تحت واحد من اقنعتة المؤثرة . وهذا يبين صعوبة التنسك اللاجمدي . وهو يكشف قبل اي شيء آخر عن الحاجة الى تيقظ دائم ، وهكذا فهو يؤكد على الخطوة العامة في هذا البحث .

بيد انه اذا لم يحن الوقت بعد لتعداد الأعمال اللاجمدية ، يمكننا ان نصل الى نتيجة بشأن الخلق اللاجمدي ، واحدة من تلك النتائج التي يمكن ان تكمل الوجود اللاجمدي . فلا يمكن ان يخدم الفن شيء مثل الفكر السلي ، لأن مداخله المظلمة المهانة ضرورية لفهم العمل العظيم تماماً كعلاقة الاسود بالنسبة للابيض . فالعمل والخلق ، « من اجل لا شيء » ، والنحت في الطين ، ومعرفة ان ما يخلقه المرء ليس له مستقبل ، وان يرى المرء عمله يدمر في يوم ، بينما يدرك ان ليس لهذا اهمية اكثر من اهمية البناء لقرون - هذه هي الحكمة الصعبة التي يقول بها اللاجمدي . والقيام بهاتين المسؤوليتين في وقت واحد ، النفي من ناحية ، والتضخيم من الناحية الاخرى ، هو الطريق المفتوح أمام الخالق اللاجمدي . يجب عليه ان يعطي الخواء ألوانه .

ويؤدي هذا الى مفهوم خاص عن العمل الفني . فغالباً ما يتم النظر الى عمل الخالق باعتباره سلسلة من الادلة المنعزلة ، وهكذا يتم الخلط بين

الفنان والأديب . والفكر العميق هو في حالة من الصيرورة الدائمة ، انه يتبنى تجربة حياة ويأخذ شكلها . وكذلك ، فان الخلق الوحيد للانسان يتعزز بمظاهره المتعددة المتتابعة : اعماله . فهي ، واحداً بعد الآخر ، يكل احدها الآخر ، ويناقض بعضها بعضاً ايضاً . واذا جعل شيء ما ذلك الخلق ينتهي فانه ليس النداء المنتصر الوهمي الذي ينادي به الفنان الاعمى : « لقد قلت كل شيء » ، وانما هو موت الخالق الذي يطلق تجربته وكتاب نبوغه .

وأما المجهود ، وذلك الادراك الذي هو أسمى من الانسان ، فيها لا يتضحان للقارئ بالضرورة . وليس هنالك سر غامض في الخلق البشري ، وانما تقوم الارادة بأداء هذه المعجزة ، بيد انه ، على الاقل ، لا يوجد خلق بدون سر . والحق ان تتابعاً من الاعمال يمكن ان يكون فقط سلسلة من مقاربات الفكر ذاته . ولكن من الممكن فهم وتصور نوع آخر من الخالق الذي يعمل بواسطة وضع الامور احدها بجانب الآخر . وقد تلوح اعمالهم خالية من العلاقات فيما بينها ، وهي ، الى حد ما ، متناقضة . ولكننا اذا نظرنا اليها مجتمعة ، وجدناها تستعيد تصنيفها الطبيعي . انها تستمد من الموت ، مثلاً ، مفزاهها التعريفي . وهي تستمد أوضح أضوائها من حياة مؤلفها . وفي لحظة الموت لا يكون تتابع اعماله الا مجموعة من النتائج الفاشلة . ولكن ، اذا كان لتلك النتائج الفاشلة نفس النغمة ، فان الخالق قد نجح في تكرار صورة حالته هو ، وجعل الهواء يتردد بصدى السر العميق الذي كان يملكه .

والمجهود المبذول للسيطرة كبير هنا . ولكن الذكاء البشري قادر

على اكثر من ذلك . فلن يشير الا الى المظهر الطوعي للخلق بوضوح .
وكننت في مكان آخر قد ذكرت انه ليس للارادة البشرية هدف آخر
غير الاحتفاظ بالوعي . ولكن هذا لا يمكن ان يتم بدون نظام وضبط .
والخلق هو أشد مدارس الصبر والوضوح تأثيراً . وهو ايضاً الدليل
القاطع على كرامة الانسان الوحيدة : الثورة المتقبعة ضد حالته ،
والاستمرار المصير في مجهود يعتبر عقياً . انه يستدعي المجهود اليومي ،
والسيطرة الذاتية ، والتقدير المضبوط لحدود الحقيقة ، والقياس ، والقوة .
وهو يؤلف تنسكاً . وكل ذلك من اجل « لاشيء » ، لتكرار الزمن
وتعيينه . ولعل للعمل الفني العظيم أهمية أقل ، بمجد ذاته ، من المعاناة
التي يتطلبها من الانسان ، والفرصة التي يقدمها له ليتغلب على اشباحه
ويقرب اكثر قليلاً من واقعه العاري .

* * *

دعنا لا نخطئ بخصوص الجماليات . انني لا أدعو هنا الى البحث
الصبور ، والتوضيح الدائم العقيم لفرضية ما ، بالعكس ، بشرط ان
أكون قد جعلت نفسي مفهوماً بوضوح . فرواية الهدف المفروض ، والعمل
الذي يثبت ، بل اشدها اثاراً للكراهية ، هو ذلك العمل الذي
غالباً ما يكون من الهام الفكر المغرور المكتفي بنفسه . فأنت تعرض
الحقيقة التي تشمر بيقينك من ملكيتك لها ، ولكن هذه فكرهم يطلقها
المرء ، والفكر تحتلف عن الفكر ، انها نقيضته . وهؤلاء الخالقون
هم فلاسفة خجلون من انفسهم . اما اولئك الذين أتحدث عنهم ، او
أنحيلهم ، فهم ، بالعكس ، مفكرون واضحون . ففي نقطة معينة ،

حين يعود الفكر على نفسه ، يرفعون عالياً صور اعمالهم كالرموز الواضحة
لفكر محدود ، فان ، ثائر .

ولعلمهم يثبتون شيئاً . ولكن تلك البراهين هي تلك التي يقدمها
الروائيون لأنفسهم ، وليس للعالم بصورة عامة . والامر الاساسي هو
ان الروائيين يجب ان ينتصروا في المعوس وان هذا هو ما يؤلف نبلهم .
وهذا الانتصار الجسدي تماماً قد أعده لهم فكر تم فيه اخضاع القوى
التجريدية . وحين يكونون كذلك تماماً ، يحمل الجسد ذلك الخلق في
الوقت نفسه يسطع بكل بريقه اللامعدي . وبعد كل ذلك ، فان
الفلسفات الساخرة المتعارضة تلتج اعمالاً متحمسة معتمدة .

واي فكر يتخلى عن الوحدة انما يعظم التنوع والاختلاف ، وهذا
هو وطن الفن . والفكر الوحيد الذي يحجر الذهن هو ذلك الذي يتركه
وحده ، واثقاً من حدوده ونهايته المقترية ، لا تقريه عقيدة ما . انه
ينتظر نضوج العمل ، والحياة . وبانفصال العمل عنه ، فانه يعطي مرة
اخرى صوتاً غير مكتوم لروح محررة ابدأ من الأمل . او انه لن يعطي
صوتاً لشيء ، اذا كان الخالق ، وقد أتعبه نشاطه ، يميل الى النكوص .
وهذا معادل .

* * *

وهكذا فانني اطلب من الخلق اللامعدي ما طلبته من الفكر - الثورة ،
والحرية ، وبعد ذلك فانه سيكشف عن ثقافته التامة . وفي ذلك الجهود
اليومي الذي تمتاز فيه حماسة الانفعال والذكاء ويبهج احدهما الآخر
يكشف الانسان اللامعدي ضبطاً يؤلف بالنسبة له أعظم قواه . وهكذا ،

فان الانهماك المطلوب ، والمتابعة والوضوح تشبه موقف الفاتح . فالخلق يشبه اعطاء شكل لمصير المرء . وبالنسبة لكل تلك الشخصيات ، تقوم اعمالها بتعريفها ، تماماً كما تسبغ هي التعريف على الاعمال . لقد علمنا الممثل هذا : ليس هنالك حد بين الكينونة والظهور .

دعني اكرر . ليس لكل هذا اي معنى حقيقي . وفي الطريق نحو تلك الحرية ما يزال هنالك تقدم يجب تحقيقه . والمجهود النهائي بالنسبة لتلك الازمان المتملقة ببعضها ، الخالق او الفاتح ، هو ان يحاولوا ان يحرروا انفسهم من الامور التي يضطلمون بها ايضاً : ان ينجحوا في الاقرار بأن ذلك العمل نفسه ، سواء كان فتحاً ، أو غراماً ، او خلقاً ، قد لا يكون ايضاً ، وبذلك فهم يحققون التفاهة الكاملة لأية حياة فردية . والحق ان ذلك يعطيهم حرية اكثر في ادراك ذلك العمل ، تماماً كما ان وعيهم للاجدوى الحياة خوّلهم ان يفرقوا فيها بكل افراط .

كل ما يبقى هو مصير لا يكون الا حصاده قتالاً . وخارج هذه الصفة القتالة في الموت ، يكون كل شيء ، سواء النبطة أو السمادة ، حرية . ويظل عالم يكون الانسان سيده الوحيد أما ما ربطه فهو وم عالم آخر . وأما حصاد فكره ، الذي يكف عن كونه تابذاً ، فانه يزدهر في صور . انه يرح - بالاساطير ، حقاً ، ولكنها اساطير لا تحتوي على عمق غير عمق العذاب البشري ، وهي مثله غير مستنفدة . ليست الخرافة المقدسة التي تسلي وتعمي ، وانما الوجه الارضي والحركة والدراما الارضيتان ، التي تتلخص فيها - حكمة صعبة وعاطفة منفعة قصيرة العمر .

اسطورة سيزيف

حكمت الالهة على سيزيف بان يرفع صخرة بلا انقطاع الى قمة الجبل حيث تسقط الصخرة بسبب ثقلها ثانية . لقد ظنوا لسبب معقول انه ليس هنالك عقاب ابشع من العمل التافه الذي لا أمل فيه .

فاذا صدق المرء ما يقوله هوميروس ، فان سيزيف كان أشد الفانين حكمة وحصافة . وتروي رواية أخرى ، على كل حال ، انه كان ميالاً الى مهنة قاطع الطريق . ولست أرى اي تناقض في هذا . وقد اختلفت الآراء بشأن السبب الذي جعله يعمل بلا جدوى في العالم السفلي . ولنبدأ بالقول بانه متهم بالسخرية بالالهة . لقد سرق اسرارها . فقد اختطف جوبيتر ايجينا ابنة ايسوبس ، وثأثر الوالد من اختطافها وشكا امره الى سيزيف . ولما كان سيزيف يعلم بأمر الاختطاف فقد عرض على ايسوبس ان يخبره عنه على شرط ان يعطي ماء الى قلعة كورنث . لقد فضل بركة الماء على الرعد السماوي ، وعوقب على ذلك في العالم السفلي . ويخبرنا هوميروس ايضاً بأن سيزيف كان قد وضع الموت في الاغلال . ولم يحتمل بلوتن منظر امباطوريته الصامتة المهجورة ؛ فأرسل إله الحرب الذي حرر الموت من يد داحره .

ويقال ايضاً ان سيزيف ، لقربه من الموت ، اندفع الى اختبار حب زوجته ، وطلب منها ان تلقي بحبته غير المدفونة وسط الساحة العامة . ويستيقظ سيزيف في العالم السفلي . وهناك ، حين ضايقته الطاعة المناقضة للحب البشري ، حصل على الاذن من بلوتن بالعودة الى الأرض لكي يعاقب زوجته . ولكنه حين رأى وجه هذا العالم مرة أخرى ، ونعم بالماء والشمس ، والصخور الدافئة والبحر ، لم يرد ان يعود الى الظلام الجهنمي . ولم تجد معه النداءات وعلامات الغضب والتحذيرات . وعاش عدة سنوات مواجهاً تقوس الخليج ، وتآلق البحر ، وابتسامات الأرض . وصار ضرورياً ان يصدر مرسوم من الآلهة . واقبل عطار (اله البلاغة) وقبض على الرجل الصفيق من ياقته ، وبعد ان اختطفه من مسراته ، قاده بالقوة الى العالم السفلي ، حيث كانت الصخرة معدة له .

لقد فهمت الآن ان سيزيف هو البطل اللاحدي . وهو كذلك عبر عواطفه بقدر كونه كذلك عبر عذابه . واحتقاره للآلهة ، وكرمه الموت وعاطفته المتحمسة للحياة ، أدت تلك الأمور كلها الى ذلك العقاب الرهيب الذي يكرس فيه الكيان كله من أجل تحقيق اللاشيء . وهذا هو الثمن الذي يجب ان يدفع لقاء انفعالات وعواطف هذه الأرض . ولا شيء يقال لنا عن سيزيف في العالم السفلي ، لأن الاساطير تعد للخيال لينفخ الحياة فيها . أما بالنسبة لهذه الأسطورة ، فان المرء يرى مجهود الجسد كله يتوتر ليرفع الصخرة ، ليحركها ، وليدفعها الى الاعلى ، فوق منجدر يرتفع مائة مرة . ويرى المرء الوجه ملتوياً ، والحد متوتراً بجانب الصخرة ، والكتف وهو يعانق الكتلة المغطاة بالطين ، والقدم وهي تستند لتدفع والبدية الجديدة والساعدين وهو يشمرهما ، واليدين البشريتين المغطاتين

يبقع الطين . وفي نهاية مجهوده الطويل الذي يقاس بفضاء لاجو له ولا سماء ، وزمن لا عمق فيه ، يتم تحقيق الهدف . ثم يرقب سيزيف الصخرة وهي تتدحرج الى اسفل في لحظات معدودات ، نحو ذلك العالم السفلي الذي يجب عليه ان يرفعها منه ثانية نحو القمة . ويعود الى السهل .

وثناء تلك العودة ، تلك الوقفة ، يهمني امر سيزيف . الوجه الذي يشتد قريباً من الصخور هو نفسه صخرة ! انني ارى ذلك الرجل وهو يعود هابطاً الى اسفل بخطوة ثقيلة ، ولكنها منتظمة ، نحو العذاب الذي لا يعرف نهايته . تلك الساعة ، كالفضاء المتنفس ، بالتأكيد ، كيقين عذابه تلك هي ساعة ادراكه . وفي كل لحظة من هذه اللحظات التي يفادر فيها الذروة ويهبط تدريجياً نحو مكن وحوش الآلهة ، يكون امسى من مصيره . يكون اقوى من صخرته .

فاذا كانت هذه الاسطورة تضم مأساة ، فذلك لان بطلها مدرك . اذ ان سيكون عذابه ، حقاً ، اذا كان الأمل في النجاح يرفعه في كل خطوة؟ ان العامل اليوم يشتغل في كل يوم من ايام حياته بنفس الامور ، وليس هذا المصير اقل لا جدوى . ولكنه يكون مأساة فقط في اللحظات النادرة التي يكون فيها مدركاً . وسيزيف ، برولتياري الآلهة ، الذي لا قوة له ، والثائر ، يعرف كل مدى حالته الشقية البائسة : وذلك هو ما يفكر به اثناء هبوطه . والوضوح الذي كان سيؤلف عذابه يتوج في الوقت نفسه انتصاره . وليس هنالك مصير لا يمكن ان يعلمه الاحتقار .

* * *

فاذا كان المهبوط يتم احياناً باسمى ، فانه يمكن ان يتم بقبضة ايضاً . وهذه الكلمة لا تضم اكثر مما ينبغي . وانني لاتصور سيزيف ثانية وهو يعود نحو الصخرة ، والاسى كان في البداية . وحين تثبتت صور الأرض بشدة بالذاكرة ، وحين يشتد الحاح نداء السعادة ، يحدث ان السوداوية تنبثق في قلب الانسان : وهذا هو انتصار الصخرة ، هذه هي الصخرة ذاتها . فالحزن الذي لا حد له اثقل من أن يحتمل . وهذه هي ليلترعبنا وعذابنا . ولكن الحقائق الساحقة تبنى بالاعتراف بها . وهكذا فان اوديب يطيع المصير في البداية ، دون ان يكون عالماً به . ولكن منذ اللحظة التي يعرف فيها ، تبدأ مأساته . الا انه في الوقت نفسه ، حين يكون أعمى ، يأساً ، يدرك ان الرباط الوحيد الذي يربطه بالعالم هو اليد الباردة لفتاة . ثم تنبثق ملاحظة هائلة : « بالرغم من كل هذه المعاناة ، فان تقدم سني ، ونبيل روحي يجعلاني أنتهي الى ان كل شيء حسن » . واوديب (سوفوكليس) ، مثل كيريلوف (دوستوفسكي) يقدم وصفة الانتصار اللامجدي بهذا . وهكذا تثبت الحكمة القديمة البطولة الحديثة .

ولا يكتشف المرء اللاجدوى دون ان يشعر بالميل الى كتابة وصفة للسعادة . « ماذا ؟ - بمثل هذه الطرق الضيقة - ؟ » هنالك عالم واحد فقط ، على كل حال . والسعادة واللاجدوى طفلان للأرض ذاتها . وهما لا تنفصلان . ومن الخطأ القول بأن السعادة تنبثق بالضرورة من الاكتشاف اللامجدي . ويحدث كذلك ان الشعور باللاجدوى ينبثق من السعادة . ويقول اوديب : « انتهى الى كل شيء حسن » . وتلك ملاحظة مقدسة . انها تتردد كالصدى في عالم الانسان الموحش المحدود . وهي تعلمنا ان كل شيء لم يستنفد حتى الآن . وهي تطرد من هذا العالم إلهاً كان قد

جاء اليه وهو غير قانع ، مفضلاً العذاب التافه . انها تجعل المصير أمراً بشرياً ، يجب ان تتم تسويته بين البشر .

يكن كل سرور سيزيف الصامت هنا . ان مصيره يخصه هو ، وصخرته هي شئته هو . وكذلك فان الانسان اللاعجدي ، حين يتأمل في عذابه ، 'يُصْنِتُ' كل الاصنام . وفي الكون الذي يعود فجأة الى صمته ، تنبثق الاصوات الصغيرة المتسائلة التي لا حصر لها . وهي ، بكونها غير مدركة ، ونداءات خفية ، ودعوات من كل الوجوه ، الثمن والنقيض الضروريان للنصر . فليست هنالك شمس بلا ظل ، ومن الضروري ان يعرف المرء الليل . والانسان اللاعجدي يقول نعم ، ولن يكف عن بذل مجهوده . فاذا كان هنالك مصير شخصي ، فليس هنالك قدر أسمى ، او ان هنالك واحداً على الأقل يستنتج انه حتمي ، بمقوت . أما بالنسبة لبقية الامور ، فهو يعرف انه سيد ايامه . وفي اللحظة الدقيقة التي ينظر فيها الانسان الى الحلف ليستعرض حياته ، حين يعود سيزيف الى الصخرة ، في ذلك الدوران الضئيل يتأمل في تلك السلسلة من الفعاليات اللامرتبطة ببعضها ، التي تصبح مصيره ، الذي يخلقه هو ، والذي يمتزج تحت عين ذاكرته ، وسرعان ما يختم عليه موته . وهكذا فهو يستمر في سيره ، مقتنعاً ، بالاصل البشري تماماً لكل ما هو بشري ، كالأعشى المتلهف الى الرؤية ، الذي يعرف ان الليل لن ينتهي أبداً . والصخرة ما تزال تتدحرج .

سأترك سيزيف عند قاعدة الجبل ! فالمرء دائماً يجد عبثه ثانية .

ولكن سيزيف يعلمنا الأمانة الأسمى ، التي تنفي الآلهة وترفع الصخور .
وهو أيضاً ينتهي الى ان كل شيء حسن . وهذا الكون الذي يظل الآن
بلا سيد ، يلوح له غير عقيم ، وغير تافه . فكل ذرة من تلك الصخرة ،
وكل قطعة معدنية من ذلك الجبل الذي يملأ الليل ، بمجد ذاتها تؤلف
عالمًا . والصراع نفسه نحو الأعالي يكفي ليملأ قلب الانسان . ويجب
على المرء ان يتصور سيزيف سعيداً .



ملحق

الامل واللاجدوى في مؤلفات فرانز كافكا

يتألف فن فرانز كافكا كله من قسر القارىء على اعادة القراءة ونهاياته ، او عدم وجود النهايات لديه ، توحى بتفسيرات هي ، على كل حال ، غير معطاة بلغة واضحة ، وانما قبل ان يلوح انها مبررة ، تتطلب اعادة قراءة القصة من وجهة نظر اخرى . هنالك احيانا امكانية مزدوجة للتفسير ، ومن هنا تنبثق الحاجة الى قراءتين . وهذا هو ما كان المؤلف يريده . ولكن سيكون من الخطأ ان نحاول ان نفسر كل شيء عند كافكا بالتفصيل . فالرمز هو دائما عام ، ومهما كانت الترجمة مضبوطة ، فان الفنان لا يستطيع ان يعيد اليه الا حركته : لأنه ليس هنالك تفسير كلمة بكلمة . واكثر من ذلك ، فليس هنالك شيء اصعب على الفهم من العمل الرمزي . فالرمز دائما يسبق ويفوق من يستخدمه ويحمله يقول في الواقع اكثر مما هو مدرك لتعبيره عنه . وفي هذا الصدد ، فان افضل وسائل الامساك بالرمز لا تتمثل في اثره ، وانما في البدء بالعمل بدون موقف سابق ، وعدم البحث عن صفاته الخفية . ومن العدل بالنسبة لكافكا على وجه التخصيص الاتفاق مع أسسه وقواعده ، وتناول الدراما عبر سطحها الخارجي ، والقصة عبر شكلها .

للوهلة الاولى ، وبالنسبة للقارئ الذي يتناولها بالصدفة ، يلوح ان مفارقات مثيرة مقلقة تدفع بشخصيات مزلة ملاحقة نحو متابعة مشاكل لا تضمنها هي . ففي « الهاكمة » نجد جوزيف ك. متهماً ، ولكنه لا يعرف بماذا . وهو بلا شك متلف للدفاع عن نفسه ، ولكنه لا يعرف لماذا . ويحد الهامون قضيته صعبة . وفي الوقت نفسه فانه لا يهمل الحب وتناول الطعام او قراءة صحيفته . ثم يحاكم ، ولكن غرفة المحكمة مظلمة جداً ، وهو لا يفهم الكثير ، وانما يفترض فقط انه محكوم ، وانما بماذا ؟ انه لا يتساءل . وهو في بعض الاحيان يشك بذلك ، ولكنه يستمر في بعض الاحيان يشك بذلك ، ولكنه يستمر في العيش . ويأتي بعد ذلك سيدان مهذبان ليدعوا الى مرافقتهم ، وهما يقودانه بكل مجاملة الى ضاحية بائسة ، ويضعان رأسه على صخرة ويقطعان رقبتيه . ولا يقول المحكوم قبل الموت غير : « مثل كلب » .

وهكذا ترى انه من الصعب التحدث عن رمز في حكاية صفتها الاشد وضوحاً هي الطبيعية . ولكن الطبيعية نوع صعب على الفهم . وهنالك أعمال أخرى (أقل واندر حقاً) نجد فيها الشخصيات تعتبر ما يحدث لها امراً طبيعياً . وبتمارض غريب ، ولكنه واضح ، كلما كانت مفارقات الشخصية استثنائية ، زادت طبيعية القصة : ويكون ذلك متناسباً مع التحول الذي نشعر به بين غرابة حياة انسان والبساطة التي يقبل بها الانسان تلك الحياة . ويلوح ان هذه الطبيعية هي طبيعية كافكا . وبالضبط ، يدرك المرء ما تمنيه « الهاكمة » . لقد تحدث الناس عن صورة للوضعية البشرية . حقاً . ومع ذلك فانها أبسط وأشد تعقيداً مما . اعني ان مغزى القصة هو اكثر خصوصية ، وشخصي اكثر ، بالنسبة

لكافكا . فالى حد ما ، نجد انه هو المتحدث ، رغم انه يعترف بي . انه يعيش ويُحكّم عليه . وهو يعرف هذا من الصفحات الاولى للقصة التي يتتبعها في هذا العالم ، واذا حاول ان يرافق هذا فانه يفعل ذلك بدون دهشة . ولن يتكشف عن استغراب كاف من عدم وجود الاستغراب . ويتم عبر مثل هذه التناقضات ادراك العلامات الاولى للعمل اللاحدي . فالذهن يسبغ على الملموس مأساته الزوحية ، وهو يستطيع ان يفعل ذلك فقط بتعارض دائم يضفي على الالوان القوة على التعبير عن الخواء ، ويضفي على الحركات اليومية الاعتيادية القوة على ترجمة المطامح الابدية .

وكذلك فان « القلمة » ربما تكون لاهوت الفعلية ، ولكنها قبل اي شيء آخر التجربة الفردية لروح تبحث عن عطائها المقدس ، لرجل يطلب من موضوعات عالمه ان تحبسه بسرهما الملكي ، وللنساء ، علامات الاله الذي ينام فيهن . والتحول ، بدوره ، يمثل بالتأكيد التصور المرعب لاخلقية الوضع . ولكنه ايضا نتاج تلك الدهشة التي لا حد لها والتي يشعر بها الانسان نحو ادراكه للوحش الذي يصيره بدون ان يبذل في ذلك مجهوداً . وفي هذا الغموض الجذري يكن سر كافكا . وهذا التردد الدائم بين الطبيعي والاستثنائي ، بين الفردي والكوني ، بين المأساة والاعتيادية ، واللاجدوى والمنطقي ، يظهر في اعماله ، وهو الذي يهبها نفعتها ومعناها . وهذه هي التعارضات التي يجب ان تُخصى وتعود ، والمتناقضات التي يجب ان تبرز وتقوى من اجل فهم العمل اللاحدي .

والرمز ، حقاً ، يتخذ مستويين ، عالمين للأفكار والأحاسيس ، وقاموساً

للمراسلات بينها . وهذا القاموس هو اصعب الأمور . ولكن التيقظ الى العالمين اللذين يواجه أحدهما الآخر يسمو الى منزلة العثور على رأس الخيط في علاقتها الخفية . وعند كافكا ، نجد ان هذين العالمين هما عالم الحياة الاعتيادية من ناحية . ومن الناحية الاخرى ، عالم القلق فوق الطبيعي^(١) . ويلوح اننا نشهد هنا استفادة لا نهاية لها من ملاحظة نيتشه : « المشاكل العظيمة في الشارع » .

هنالك في الوضعية البشرية (وهذا هو أمر مألوف في كل الآداب) لا جدوى أساسية بالإضافة الى النبيل الصامد الثابت . ويحدث الاثنان معاً ، كما هو طبيعي . ويتم تمثيل الاثنين معاً ، دعني اكرر ، في الانفصال المضحك الذي يفرق بين افراطنا الروحي وبين غبطات الجسد قصيرة العمر . والشيء اللاعجدي هو ان روح هذا الجسد هي التي يجب ان تخضع لذلك التفوق اللاطبيعي المفرط . وكل من يريد ان يصور هذه اللاجدوى يجب ان يعطيها الحياة في سلسلة من التعارضات المتعادلة المتوازية . وهكذا فان كافكا يعبر عن المأساة بالاعتيادي اليومي ، وعن اللاجدوى بالمنطقي .

والمثل يهب قوة اكثر للشخصية التي تمثل المأساة كلما اهتم اكثر

(١) يحذر بي ان لاحظ هنا ان اعمال كافكا يمكن ان تفسر بصورة مشروعة ايضاً باعتبارها نقداً اجتماعياً (كما هو الامر في « المحاكمة » مثلاً) . واكثر من ذلك ، فمن المحتمل انه لا حاجة هنالك تدعو الى الاختيار ، فالتفسيران متازان ، وللمعنى اللاعجدي ، كما رأينا ، تكون الثورة ضد البشر موجبة ايضاً ضد الله : لأن الثورات العظيمة هي دائماً ميتافيزيكية .

بعدم المبالغة . واذا كان معتدلاً ، فان الرعب الذي سيوحى به لن يكون معتدلاً . وفي هذا الصدد ، نجد ان المأساة الاغريقية غنية بالعظات . فالمصير يحظى بالفهم في العمل الذي يصور المأساة اكثر فأكثر كلما كان ذلك تحت ستار المنطق والطبيعية . ومصير اوديب يعلن مقدماً ، ويتم بدواعٍ فوق طبيعية تقرير انه سيرتكب القتل والزنى . وينصب مجهود الدراما كله في اظهار النظام المنطقي الذي سيتوج سوء حظ البطل ، من استنتاج الى استنتاج آخر . والحق ان اعلان ذلك المصير غير الاعتيادي لنا هو أمر غير مرعب ، لأنه غير محتمل . بيد انه اذا تم الكشف عن ضرورته لنا في اطار الحياة اليومية الاعتيادية ، والمجتمع ، والدولة ، والعاطفة المألوفة ، فان الرعب يتسع . وفي تلك الثورة التي تهز الانسان وتجعله يقول : « ليس ذلك ممكناً » ، هنالك عنصر من اليقين الميائس الذي يقول بأن « ذلك » يمكن أن يكون .

وهذا هو كل سر المأساة الاغريقية ، او سر واحد من مظاهرها على الأقل . لان هنالك سر آخر سيساعدنا ، بطريقة عكسية ، في فهم كافكا فهماً أفضل . فالقلب البشري يميل ميلاً مضجراً الى ان يطلق تسمية المصير على ما يسعفه فقط . ولكن السعادة ، كذلك ، وبطريقتها ، هي بلا سبب ، طالما انها حتمية . والانسان الحديث ، على كل حال ، يعتبر نفسه مصدرها حين لا يفشل في رؤيتها . وبالعكس ، فيمكننا ان نقول الكثير عن مصائر المأساة الاغريقية ، تلك المصائر الممتازة ، واولئك الذين يحاطون بالامتيازات في الاساطير ، مثل يوليسيس ، اذ نجدهم يُنقذون من انفسهم وسط أشد المغامرات هولاً . فلم تكن العودة الى ايشاكا سهلة هكذا .

وما يجب علينا ان نتذكره في اية حالة هو تلك المشاركة الحفية التي تربط بين المنطقي والاعتيادي وبين ما هو مأساة . ولهذا السبب فان سامسا ، بطل « التحول الشخصي » هو بائع متجول وهذا ايضا هو السبب في ان الامر الوحيد الذي يقلقه في المغامرة الغريبة التي تحوله الى حيوان طفيلي هو ان رئيسه سيفضب لغيابه . تنمو السيقان والمجسات ، ويتقوس عموده الفقري ، وتظهر بقع بيضاء على بطنه ، و - لن اقول ان هذا لا يدهشه ، لأن التأثير سيفسد - لكن ذلك يسبب له « ضيقاً بسيطاً » . وفن كافكا كله يتميز بهذا . وفي كتابه المرميسي « القلعة » تنهض تفاصيل الحياة اليومية بارزة ، ومع ذلك ففي تلك القصة الغريبة التي لا ينتهي فيها شيء ، وانما تبدأ فيها الاشياء مرة أخرى ، نجد المغامرة الاساسية للروح الباحثة عن عطائها المقدس . وتلك الترجمة للمشكلة الى فعالية ، وتوافق حدوث العام والخاص ملحوظان كذلك في الوسائل الصغيرة التي تخص كل خالق عظيم . وفي « المحاكمة » كان يمكن ان يسمى البطل شمدت او فرانز كافكا . ولكنه يسمى جوزيف ك . انه ليس كافكا ، ومع ذلك فهو كافكا . انه اوروبي اعتيادي . وهو كالأخرين . ولكنه ايضا الكيان ك . الذي يمثل س في معادلة الجسد .

وكذلك ، فانه اذا اراد كافكا ان يعبر عن الالجدوى فانه سيستخدم التأسك . وانت تعرف قصة الأحق الذي كان يصطاد في حوض الحمام . وسأله دكتور يحمل افكاراً عن العلاج النفسي : « هل هي تعض على الطعم ؟ » وحصل على الجواب الحشن : « بالطبع لا ، ايها الأحق ، طالما ان هذا هو حوض الحمام » . وهذه القصة تعود الى النمط الشاذ

المزوق ، ولكننا نستطيع ان نلمس فيها بوضوح تام الى اي حد ترتبط النتيجة اللامجدية بالافراط في المنطق . وعالم كافكا هو في الحقيقة كون لا يمكن وصفه يسمح فيه الانسان لنفسه بالتعرف المعذب المتمثل في الاصطياد في حوض الحمام ، عالماً بأنه لا شيء سينتج من ذلك .

وبالتالي ، أرى هنا عملاً لا مجدياً في مبادئه . أما بالنسبة « للمحاكمة » مثلاً فأنني استطيع حقاً ان اقول انها نجاح كامل . فالجسد يفوز ، ولا شيء يعوزه ، لا الثورة اللامعبر عنها ، (وانما هي التي تكتب) ، ولا اليأس الواضح الصامت (وانما هو الذي يخلق) ، ولا تلك الحرية المدهشة في الطريقة ، تلك الحرية التي يمثلها الاشخاص حق موتهم النهائي .

* * *

ومع ذلك فان هذا العالم ليس مغلقاً كما يلوح . ففي هذا الكون الخالي من التقدم ، سيقدم كافكا الأمل بشكل غريب . وفي هذا الصدد فان « المحاكمة » و « القلعة » لا تتبعان عين الاتجاه . وانما تكلل احدهما الاخرى . والاستمرار المحسوس بصورة ضعيفة ، الذي يحدث من واحدة نحو الاخرى يمثل فتوحاً هائلاً في دنيا التجنب . « فالمحاكمة » تمنع التأمل في مشكلة نجد أن « القلعة » الى حد ما تحملها . فالاولى تصف طبقاً لطريقة شبه علمية وبدون ان تستنتج . والثانية ، الى حد ما تفسر . « المحاكمة » تصف الاعراض ، بينما تصف « القلعة » العلاج . ولكن الدواء المقترح هنا لا يشفي . انه فقط يعيد المرض الى الحياة الاعتيادية . انه

يساعد على قبوله . وهو بمعنى معين ، (دعنا نفكر في كيركفارد)
يحمل الناس يحتفظون به باعتزاز . فمساح الاراضي ك لا يستطيع ان
يتصور قلماً آخر غير القلق الذي يعذبه . والناس المحيطون به انفسهم
يصبحون متصلين ومرتبطين بذلك الخواء وذلك الالم الذي لا اسم له ،
وكان المعاناة اتخذت في هذه الحالة مظهراً ممتازاً . تقول فريدا لك :
« كم احتاج اليك ، وكم اشعر بالوحدة ، منذ عرفتك ، حين لا تكون
معي . » وهذا العلاج البارع الذي يحملنا نحب ما يسحقنا ويحمل الأمل
ينبثق في عالم بلا حسيلة ، هذه « القفزة » المفاجئة التي يتغير أثناءها كل
شيء ، هي سر الثورة الوجودية و سر « القلعة » نفسها .

مؤلفات قليلة جداً يمكن ان تفوق « القلعة » في قوة تطوراتها .
يعين ك مساحاً للاراضي للقلعة ، وهو يصل الى القرية . ولكن من الصعب
الاتصال بين القرية والقلعة . ويستمر ك خلال مئات الصفحات في البحث
عن طريقه . ويقوم بكل وسيلة ، ويستخدم كل حيلة واجراء ، ولا
يفضب ، ويحاول بنية حسنة لا مكثرة ان يقوم بالاعباء المعهودة اليه .
وكل فصل جديد هو خيبة جديدة ، وكذلك بداية جديدة . فالامر ليس
منطقاً ، وانما هو طريقة متأسكة . ويؤلف مدى ذلك الاصرار صفة العمل
المشعبة بالمأساة . وحين يتلفن ك الى القلعة ، يسمع اصواتا مضطربة
بمتزجة ، وضحكات غامضة ، ودعوات بعيدة . ويكفي هذا ليطعم أمله ،
كتلك العلامات القليلة التي تظهر في سماء الصيف أو تلك البؤادر المسائية
التي تؤلف سبب العيش بالنسبة لنا . وهنا نجد سر السوداوية المألوفة في
كافكا ، وهذا هو نفسه الذي نجده في الحقيقة عند بروسست او في مناظر

بلوتينوس : حنين كئيب الى فردوس مفقود . وتقول أولفا : « اصبحت حزينه جداً حين اخبرني بارتاباس في الصباح بأنه ذاهب الى القلعة : تلك الرحلة التي يحتمل ان تكون قافية ، ذلك اليوم الذي يحتمل ان يكون مضيقاً ، ذلك الأمل الذي يحتمل ان يكون خاوياً . » « يحتمل » - وفي هذا المضمون يقامر كافكا بكل عمله . ولكن لا شيء يحدي ، والبحث عن الابدية هنا دقيق في تفاصيله . وتلك الشخص الاوتوماتيكية الملهمه ، شخوص كافكا ، تقدم لنا صورة دقيقة عما يجب ان نكون عليه اذا كنا محرومين من الامور التي تحول انتباهنا^(١) ، مستسلمين تماماً لمهانة المقدس .

ونجد في « القلعة » ان ذلك الاستسلام لليومية العادية يصبح اخلاقية . وأمل ك. الكبير هو ان يجعل القلعة قتيلاً . ولما كان غير قادر على تحقيق ذلك وحده ، فان جهوده كلها تتجه الى استحقاق هذا العطاء بان يصبح من سكان القرية ، بان يفقد صفة الاجنبي ، تلك الصفة التي يجعله الجميع يشعر بها . انه يريد شيئاً يشغله ، حرفة ، وبيتاً ، وحياة رجل صحيح عادي . انه لا يستطيع ان يحتمل جنونه اكثر مما فعل . وهو يريد ان يكون معقولاً . انه يريد ان يستبعد اللعنة الخاصة التي تجعله غريباً بالنسبة للقرية . وحادثة فريدا ذات مغزى في هذا الصدد ، لأنه

(١) يلوح في « القلعة » ان « الامور التي تحول الانتباه » بالمعنى الباسكالي تتمثل في المساعدين الذين « يحولون انتباه » ك عن قلقه . ولو صارت فريدا عشيقه احد المساعدين ، فذلك لانها تفضل مظاهر المسرح على الحقيقة ، والحياة اليومية الاعتيادية على العذاب المشترك .

إذا اتخذ من هذه المرأة التي تعرف واحداً من موظفي القلعة عشيقه له ،
فإن ذلك هو بسبب ماضيها . أنه يستمد منها شيئاً يفوقه هو - في
الوقت الذي يعي فيه ما يجعلها غير جديرة بالقلعة . وهذا يحمل المرء
يفكر في حب كيركفارد الغريب لريحينا أولزن . ففي بعض الرجال
تكون نار الأبدية التي تحرقهم عظيمة عظيمة تكفيهم ليحرقوا فيها قلوب
أقرب الناس إليهم . والخطأ القاتل الذي يتألف من إعطاء الله ما هو
ليس راجعاً لله هو كذلك موضوع هذه الحادثة في « القلعة » . ولولا
كافكا للاح أن هذا ليس خطأ . إنها عقيدة و « قفزة » ، وليس هنالك
شيء ليس راجعاً لله .

وأعظم مغزى من ذلك أن مساح الأراضي يقطع علاقته بفريدا لكي
يذهب إلى الشقيقات بارتاباس . لأن عائلة بارتاباس هي العائلة الوحيدة في
القرية التي تخلت عنها القلعة والقرية نفسها . لقد رفضت أماليا ، الشقيقة
الكبرى ، الأغراض المخجلة التي أرادها منها أحد موظفي القلعة . وقد
طردتها اللعنة اللاأخلاقية التي تبعت ذلك نهائياً من حب الله . أن عدم
القدرة على فقدان الشرف من أجل الله أمر مماثل لجعل المرء نفسه غير
جدير بنعمته . وانت ترى هنا فكرة مألوفة بالنسبة للفلسفة الوجودية :
الحقيقة المماكسة للأخلاق . وهنا تكون الأشياء أبعد مدى . لأن الطريق
الذي يتبعه بطل كافكا من فريدا إلى الشقيقات بارتاباس هو الطريق نفسه
الذي يؤدي من الثقة بالحب إلى تأليه اللاجودوى . وهنا أيضاً يوازي فكر
كافكا فكر كيركفارد . ولا يدهشنا أن « مسألة بارتاباس » موضوعة في
نهاية الكتاب . ومحاولة مساح الأراضي الأخيرة هي أن يستعيد الله بواسطة

ما ينبغي ، ان يميزه ، ليس بواسطة تصنيفاتنا عن الطيبة والجمال ، وانما خلف المظاهر الحاروية المقرفة ، مظاهر لا اكترائه ، ولا عدالته ، وكراميته . وذلك الغريب الذي يطلب من القلعة ان تتبناه هو في نهاية سفرته منفي اكثر قليلا لأنه في هذه المرة غير مخلص لنفسه ، قد تخلى عن الاخلاقية ، والمنطق . والحقائق العقلية لكي يحاول ان يدخل ، مسلحاً بامله المجنون فقط ، صحراء النعمة المقدسة ^(١) .

* * *

وكلمة « الامل » المستخدمة هنا ليست مضحكة . بالعكس ، فكلما ازدادت مأساة الوضعية التي يصفها كافكا ، زاد ثبات وتحرش هذا الامل . وكلما ازدادت لاجدوى « المحاكاة » حقاً ، زادت مشروعية واحتدام « القفزة » التي تتجلى في « القلعة » . ولكننا نجد هنا ايضاً في حالة نقية تعارض الفكر الوجودي كما يعبر عنه كيركفارد مثلاً : « يجب قتل الامل الارضي ، لأنه حينذاك فقط يتم انقاذ المرء بالامل الحقيقي » ^(٢) ، ويمكننا ان نترجم هذا الى : « يجب على المرء ان يكتب « المحاكاة » لكي يضطلع « بالقلعة » . »

(١) يصح هذا فقط على النسخة غير المنقحة من « القلعة » التي خلفها كافكا لنا . ولكننا نشك في ان الكاتب كان سيدمر في الفصول الاخيرة وحدة النعمة في روايته .
(٢) نقاء القلب .

كان معظم اولئك الذين تحدّثوا عن كافكا قد عرفوا اعماله بانها نداء يائس ، دون ان يكون للانسان ما يمكنه ان يلجأ اليه . ولكن هذا يستدعي اعادة النظر . هنالك أمل وأمل . ويلوح لي نتاج هنري بورديو التفاؤلي غير مشجع بصورة غريبة . ويرجع هذا الى انه ليس فيه شيء لمن يقوم بالتمييز . ومن الناحية الاخرى ، فان فكر مالرو منشبت متمسك دائما . بيد انه في هذين الاتجاهين لا يلتجئ الامل نفسه ولا اليأس نفسه شيئا ، وانما ارى فقط ان العمل اللاجدي نفسه قد يؤدي الى اللامباليا الذي اريد ان اتجنبه . والعمل الذي لم يكن غير تكرار لا نتيجة له لوضعية عقيمة ، وتعظيم واضح لما هو قصير العمر ، يصبح هنا مهدداً للواهم . انه يفسر ، وهو يعطي الامل شكلا . ولا يكون في وسع الخالق بعد ان يفصل نفسه عنه . انه ليس اللعبة المتصفة بالمأساة التي كان سيكونها . انه يعطي معنى لحياة المؤلف .

وعلى اي حال فمن الغريب الاعمال التي تتصف بعلاقة مترابطة في موحياتها ، كاعمال كافكا وكيركفارد وجيستوف - باختصار ، اعمال الروائيين والفلاسفة الوجوديين الذين ينظرون باتجاه اللاجدي ونتائجها - تؤدي ، في المدى البعيد ، الى ذلك النداء الهائل للامل .

انهم يعانقون الله الذي يستنفدم . ولا يدخل الامل الا عبر الخضوع ، لأن لا جدوى هذا الوجود تؤكد لهم اكثر قليلا من الواقع فوق الطبيعي . فاذا كان اتجاه هذه الحياة يؤدي الى الله ، فان هنالك حصيلة ما . والاستمرار المصير ، والثبات ، الذي يكرر به ابطال كيركفارد

وجيستوف وكافكا نهجهم الحياتي هو الضمان الخاص للقوة الصاعدة التي يتميز بها ذلك اليقين (١) .

ان كافكا ينكر على الهة النبيل الاخلاقي والدليل والفضيلة والتاسك، ولكن الافضل فقط هو ان يرتقي بين ذراعيه . فقد تمت رؤية الالجدوى، وقبولها، واستسلم الانسان لها ، بيد انه منذ ذلك الحين فصاعداً صرنا نعرف انها لم تعد لا جدوى . ففي حدود الوضعية البشرية ، اي أمل هنالك أعظم من أمل الخلاص من تلك الوضعية ؟ انني لا ارى مرة اخرى ان الفكر الوجودي ، في هذا الصدد (بعكس الرأي السائد) يفرق في أمل واسع . انه الأمل نفسه الذي الهب العالم القديم اثناء انتشار المسيحية والانباء السارة . ولكن في تلك القفزة التي يتميز بها الفكر الوجودي كله ، وفي ذلك الاصرار ، في ذلك القياس لقدسية لا سطح لها ، كيف لا يستطيع المرء ان يرى علامة وضوح يتبرأ من نفسه ؟ يتم الادعاء فقط بان هذا هو الكبرياء التي تتخلى عن نفسها لتتخذ نفسها . ويمكن ان يكون مثل هذا التبرؤ خصباً مشمراً ، ولكن هذا لا يغير شيئاً من ذلك . ولا تستطيع القيمة الاخلاقية للموضوع ان تتقلص في نظري بمجرد وصفها بانها عقيمة ككل كبرياء . لأن الحقيقة ايضاً ، بتعريفها نفسها ، عقيمة . الحقائق كلها عقيمة . وفي العالم الذي يتم فيه اعطاء كل شيء ، ولا يفسر فيه شيء ، يكون خصب قيمة ما

(١) الشخصية الوحيدة بدون أمل في « القلعة » هي اماليه . انها الشخصية التي تتعارض معها شخصية مساح الاراضي بأشد العنف .

او ميتافيزيك ما مفهوماً خالياً من المعنى .

وعلى اي حال ، فانت ترى هنا في اي تقليد فكري يأخذ نتاج كافكا مكانه . وانه ليكون من الذكاء حقاً اعتبار الاستمرار الذي يقود « المحاكاة » الى « القلعة » حتمياً . فجوزيف ك ، ومساح الأراضي ك هما في الحقيقة قطبان يتجازبان كافكا^(١) . وسأتحدث مثله فأقول ان نتاجه قد لا يكون مجدياً . ولكن ذلك يجب ان لا يمنعنا من رؤية نبه وعموميته . انهما ينبثقان من كونه قد نجح في تصوير الممر اليومي الاعتيادي من الأمل الى الأسى ومن الحكمة اليائسة الى العمى العقلي . فنتاجه عام (والنتاج اللامعدي حقاً هو غير عام) الى الحد الذي يصور به وجه الانسان المتحرك عاطفياً وهو يهرب من البشرية ، مستمداً من تناقضاته اسباباً للآيمان ، اسباباً للامل من يأسه الخصب ، مسمياً الحياة تدريباً القتال على الموت . انه عام لان وحيه هو ديني . وكما هو الامر في كل الأديان ، يتحرر الانسان من عبء حياته هو . ولكنني اذا كنت اعرف ذلك ، واذا كان في وسعي ان اعجب به ايضاً ، فأنني اعرف ايضاً انني لست ابحث عما هو عام ، وانما عما هو حقيقي . وقد لا يترافق حدوث الاثنين معاً .

ويمكننا ان نفهم هذه النظرة الخاصة بصورة افضل اذا قلت ان الفكر الذي لا يأمل حقاً يحدث ان يكون معرفاً بالمقياس المضاد ، وان

(١) قارن ، بشأن مظهري فكر كافكا ، بين « في مستعمرة الجزاء » التي نشرتها مجلة - كيب الجنوب - : « الجريمة (والمفهوم - جريمة الانسان) غير مشكوك فيها قط » ، وبين قطعة في « القلعة » - تقرير موموس : « ان جريمة مساح الاراضي ك صعبة للتمين » .

النتاج الحافل بالمأساة قد يكون النتاج الذي ، بعد ان يتم نفي كل أمل في المستقبل ، يصف حياة انسان سعيد . وكلما كانت الحياة مثيرة اكثر ، زادت لا جدوى فكرة فقدانها . ولعل هذا هو سر الاقفرار الفخور الذي نلسه في نتاج نيتشه . وفي هذا الصدد ، يلوح نيتشه الفنان الوحيد الذي استمد النتائج المتطرفة لجمالية الالاجدوى ، بقدر ما تكن رسالته الأخيرة في وضوح غلاب عقيم ونفي عنيد لاية تعمزية فوق طبيعية .

ويجب ان يكون ما ذكرته كافياً لابرار كل اهمية كافكا في اطار هذا البحث . فنحن هنا مسوقون الى حدود الفكر البشري . وبالمعنى الاتم للكلمة ، يمكن القول بان كل شيء في ذلك النتاج اساسي . وعلى اي حال ، نجد انه يعم التأمل في مشكلة الالاجدوى كلها . واذا اراد المرء ان يقارن بين هذه الاستنتاجات وملاحظاتنا الاولى ، المحتوى مع الشكل المعنى الخفي في « القلمة » مع الفن الطبيعي الذي تصاغ فيه ، وبحثك المتحمس الفخور مع مظاهر الحياة اليومية الاعتبارية التي يحدث ذلك البحث فيها ، فسيذكر ما يمكن ان يكون عظمتها . لانه اذا كان الحنين الغامض الكئيب علامة البشرية ، فلمله لم يعط احد مثل هذا الجسد والحجمية لاشباح الندم هذه . ولكننا سنرى في الوقت نفسه اي نبل استثنائي يدعو اليه النتاج الالاجدي ، ولكنه ربما لا يكون موجوداً هنا . فاذا كانت طبيعة الفن هي ان يربط بين العام والخاص ، بين الابدية القصيرة لقطرة من الماء وانعكاس اضوائها ، فانه ليكون اكثر صحة ان نحكم على عظمة الكاتب الالاجدي بالمسافة التي يستطيع ان يقدمها بين هذين العالمين . فسرّه يتألف من استطاعته ان يجد النقطة المضبوطة حيث يتقابلان في اعظم لا تناسبها .

ولكي نقول الحق ، فان هذا الموضع الهندسي الدقيق للانسان وللإشري يمكن ان يراه في كل مكان نقاء القلب . فاذا كان فاوست ودون كيشوت من المخلوقات الفنية البارزة ، فان هذا يرجع الى النبيل الذي لا حد له ، الذي يشيران اليه بإيديهما الأرضية . ومع ذلك ، تأتي لحظة دائماً ، ينفي فيها الذهن الحقائق التي تستطيع تلك الأيدي ان تلمسها . تأتي لحظة لا يؤخذ فيها الخلق على انه مأساة ، وانما يؤخذ مأخذاً جاداً فقط . ثم يهتم الانسان بالأمل . ولكن هذا ليس من شؤونه ، وانما ينحصر اهتمامه في النكوص عن الزيف والأعداء الكاذبة . ومع ذلك فهذا بالضبط هو ما أجده في نهاية الاتهامات العنيفة التي يتقدم بها كافكا ضد الكون كله . فعجته التي لا يمكن تصديقها تتمثل في هذا العالم المقنوط المقلق الذي نجد فيه الذرات نفسها تجرؤ على الأمل ^(١) .

(١) قدمت هنا تفسيراً لنتاج كافكا ، ولكن من العدل فقط ان نضيف انه لا شيء هنالك يمننا من بحته . بصرف النظر عن أي تفسير ، من وجهة نظر جمالية صرفة . فنجد مثلاً ان ب . غروثويسن في مقدمته الممتازة « للحاكمة » يجد نفسه ، بحكمة اشد مما فعلنا ، يتتبع التصورات المؤلمة لما يسميه ، تسمية مثيرة ، بالحلم في يقظته . فمصدر ذلك النتاج ، وربما عظمتته انه يقدم كل شيء ولا يثبت شيئاً .